الدكتور محمد البهي

القرآن .. والمجتمع

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ - شارع الجمهورية بعابدين
ت ٩٣٢٤٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

ذو الحجة ١٣٩٦ هـ
ديسمبر ١٩٧٦ م

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى ـ القاهرة)
تليفون : ٢٢٠٧٩

تقـــديم

يحاول بعض المشتغلين بالسياسة فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة، وبعض الكتاب فيها ، اقتداء ببعض المستشرقين : أن يضعوا أمام الرأى العام الإسلامى فى حاضره ـ وخاصة أمام الشباب ـ أن الإسلام دين علاقة خاصة بين الله والإنسان ، وليس دين دولة . . وليس ديناً لسياسة مجتمع . . وليس منهج حكومة وقيادة سياسة فى مباشرة توجيه الأفراد فيه ، وفى علاقة المجتمع بمجتمع آخر عداه .

لكن القرآن عندما يتحدث عن خَلْق الإنسان، وخلق ما يعينه على المعيشة فى الحياة الدنيا من حيوان ونبات ، يتحدث عن خاصة « الزوجية » فى الذكورة والأنوثة فى الإنسان ، والحيوان، والنبات ، فيجعل لها هدفاً مشتركاً بين الأنواع الثلاثة ، وهو الكثرة والزيادة العددية فيها . بينما يضيف فى جانب الإنسان وحده إلى هذا الهدف المشترك : هدفاً آخر خاصاً به ، هو هدف قيام المجتمع البشرى وتحقيق أغراضه . فيقول فى شأن هذا الهدف الخاص بالإنسان : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ، ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »(١) . . فالزوجية من الذكورة والأنوثة فى خلق الإنسان استهدفت بصفة خاصة الاستقرار بين الأفراد ، ومودة بعضهم لبعض ، ورحمة القوى منهم للضعيف فيهم . ومعنى ذلك : أنه هناك وراء الكثرة العددية من الزوجية فى الإنسان: معنى اجتماعياً آخر لا يوجد إلا فى النوع الإنسانى وحده ، وهو معنى يجب أن يتحقق . وإلا عاد النوع الإنسانى شبيهاً بالحيوان والنبات من كل وجه ، غير مميز عنهما .

---

(١) الروم : ٢١ .

فى حديث القرآن هنا ما يوجه إلى المجتمع وقيامه . والمجتمع الإنسانى إذا كان هدفا لخلق الله الإنسان ، فإن رسالته جل شأنه إذا اتجهت إلى الفرد فى صياغته الإنسانية عن طريق تكليفه بأداء العبادات،فلكى تعده إلى الملاءمة الاجتماعية التى تحقق قيام المجتمع ، وبالتالى تحقق السكن ، والمودة ، والرحمة بين الأفراد .

أما حديث القرآن عن زيادة الكم فى الأنواع الثلاثة عن طريق الزوجية أو التقابل فى الخلق بين الذكورة والأنوثة ، فهو يذكر هذه الغاية المشتركة فى الإنسان والحيوان فى قول الله تعالى :

« فاطر السموات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجا، ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير »(١) .

ويذكرها فى الإنسان والنبات فى قوله :

« سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرضُ ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون »(٢) .

ويفصلها فى النبات فى قوله :

« الذى جعل لكم الأرض مَهْداً ، وسلك لكم فيها سُبُلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . كلوا ، وارعوا أنعامكم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى »(٣) .

كما يفصل هذه الغاية الكمية فى دائرة الإنسان، فيما جاء فىسورة النحل:

« والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم بنين وحفدة، ورزقكم من الطيبات ، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون »(٤) .

---

(١) الشورى : ٢١ (٢) يس : ٣٦
(٣)طه : ٥٣/٥٤ (٤) النحل : ٧٢

والقرآن بدعوته الإنسان إلى تحقيق المجتمع الإنسانى فإنه يدعوه إلى أن يكون حضارياً ، لا يقف بجهوده ، وسعيه عند حد الكم وحده . وإنما يتجاوزه إلى النوع والنوع المنشود هو ما حدد مظاهره هنا: من السكنى .. والمودة .. والرحمة .

وهكذا : الإنسان فى نظر القرآن حضارى . وحضارته فى الدرجة الأولى حضارة إنسانية . قد تصاحبها حضارة له مادية أخرى . ولكن إذا فقد حضارته الإنسانية التى تقوم على القيم الإنسانية الرفيعة، كالاستقرار، والمودة ، والرحمة ، فإنه يفقد فى الواقع الخاصة التى تميز بها عن الحيوان والنبات .

فالإنسان حضارى . والمجتمع صاحب الروابط الإنسانية هو مجتمع حضارة والدعوة إليه دعوة إلى الحضارة الإنسانية .

* * *

وكتاب : « القرآن — والمجتمع » .. يقدم للقارىء من القرآن الكريم: الظواهر الاجتماعية العامة التى تصاحب أى مجتمع .. وطابع المجتمع الإسلامى الذى يحقق الروابط الإنسانية وبالتالى يحقق المجتمع الحضارى .. وقيادته التى تتجاوز فى سياستها مرحلة المراهقة .. وعلاقته بالمجتمع اللاحضارى، أو المجتمع الجاهلى أو المادى ، ليكون على بينة من الجوانب الاجتماعية العديدة .

وما يقدمه هذا الكتاب للقارىء من القرآن الكريم ، خاصاً بالمجتمع البشرى ، يطرح أمامه سؤالين :

• السؤال الأول : هل ما يذكره القرآن هنا فى شأن المجتمع مستفاداً من واقع الحياة العربية على عهد الرسول عليه السلام ، أم أنه منبثق من خصائص الطبيعة البشرية ؟ .

• السؤال الثانى: إذا كان ما يذكره القرآن فى شأن المجتمع هو تعبيراً عن خصائص الطبيعة البشرية ، و بالتالى كان وحيا من عند الله — وهو كذلك — لماذا يغمض رجال السياسة وبعض المفكرين من المسلمين وغيرهم ، عيونهم من أهمية ما جاء به القرآن للإنسان فرداً أو مجتمعاً ؟ . هل ذلك يرجع إلى المادية التى أوشكت أن تسد جميع النوافذ على روحية الإنسان ، وعلى دعوة الإسلام ؟

***

إن هذا الكتاب يأمل أن يقدم للشباب ما يساعده على أخذ نفسة بمنهج إسلامى يقوده إلى سكنى نفسه فى صراعها الداخلى ، وإلى مودتها مع الآخرين فى مجتمعهم ، وإلى أن تسود بينهم الرحمة . فوضع أى فرد لا يدوم فى هذه الحياة . وما يقدمه اليوم للآخرين قد يقدمه بعضهم إليه فى غده عند الحاجة إليه . والله ولى التوفيق .

محمد البهى

مصر الجديدة فى ١٤ من جمادى الأولى سنة ١٣٩٦

١٤ من مايو سنة ١٩٧٦

الفصل الأول

ظواهر نفسية واجتماعية عامة

- التحول الاجتماعى يتبع التحول النفسى .
- اختلاف المجتمعات فى الكفر والإيمان ضرورة إنسانية .
- اختلاف الشعوب سبب للتعارف بينها .
- تفاضل الناس فى المجتمع . فى الأرزاق وفى مستوى الإنسانية ظاهرة طبيعية.
- الحرب ضرورة إنسانية .
- الإلحاد ظاهرة من ظواهر الحياة الإنسانية .
- سقوط المجتمع يتبع حرمان أصحاب الحاجة .
- العبث الجماعى جريمة عظمى فى حق المجتمع .
- المجتمعات ينتهى أمرها إلى أصحاب المستوى الإنسانى .
- متع الدنيا لا يحرم منها غير المؤمن بالله .
- من يؤثر الدنيا على دين الله يترقب نهايته .
- المنفعية فى عبادة الله طريق الخسران .
- التوجه لغير الله دليل الضعف .
- الارتداد عن دين الله لا يشكل حرباً على الدين .
- الخروج عن دين الله لا يصيب دعوة الله بسوء .
- غير المؤمن بالله لا يقدم على القتال إلا عند التفوق فى الإعداد والتحصين .
- إعلان الحق تعبير عن قوة الإيمان .
- قوة الإيمان كفيلة بتعويض النقص المادى فى مواجهة الأعداء .
- قوة الإيمان فى عدم الاستسلام للصعاب والأزمات .
- التطبيق العملى — هو محك الإيمان .
- التجاء الإنسان إلى الله عند المحنة — والتولى عنه عند النعمة .
- المستضعفون فى الأرض يؤخذون على استسلامهم للطغيان .
- الله يمهل — ولا يهمل .

التحول الاجتماعي يتبع التحول النفسي

• إن القرآن الكريم إذ يقول : « إن الله لا يغيرُ ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »[١] يرى أن التحول النفسي مقدمة ضرورية للتغيير الاجتماعي . فالإسلام نفسه دعوة إلى التغيير النفسي أولا من عادات المجتمع المادي أو الجاهلي . . إلى عادات المجتمع الإنساني : هو دعوة إلى التحول من مظاهر اجتماعية معينة . . إلى مظاهر أخرى مقابلة لها تماماً ، عن طريق التعبير بأخطار المظاهر الاجتماعية الأولى .

فإذا كان من عادات المجتمع المادي أو الجاهلي : الإمساك عن الإنفاق على صاحب الحاجة ، ويتجلى ذلك فيما يذكره الله سبحانه عن الماديين : « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه »[٢] . . فإن دعوة الإسلام تتجه إلى تغيير هذه العادة في نفوس المؤمنين بالله إلى أن يصبح الإنفاق على أصحاب الحاجة عادة بديلة في نفوسهم ، بحيث يستطيعون الإنفاق عليهم عن محبة ورضاء نفس . كما يصوره القرآن كصفة من صفات المؤمنين في قوله : « ويطعمون الطعام على حبه (أي حب الإطعام) مسكينا ، ويتيما وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً »[٣] .

فعادة الماديين والجاهليين هي البخل والشح . . هي الأنانية وعدمُ الاعتراف بالآخرين ، بينما عادة الإنسانيين أو المؤمنين يجب أن تكون المشاركة بالمال ، والقوة ، والعلم والجاه . . يجب أن ترتكز على التعاطف ،

---

(١) الرعد : ١١ (٢) يس : ٤٧
(٣) الإنسان : ٨/٩

والمساندة من قوى لضعيف ، ومن صحيح لمريض ، ومن صاحب ثراء إلى صاحب حاجة ، ومن صاحب علم إلى فقير إليه . وهكذا . . .

ودعوة الإسلام إلى التحول من عادات أو تقاليد خاصة سائدة في المجتمع المادي . . إلى عادات أخرى وتقاليد أخرى يجب أن تسود ، وهي العادات الإنسانية ، أي التي تمثل المستوى الإنساني ، تقترن دائماً بتوضيح الخاطر على المجتمع المادي من شحه وبخله : فمثلا فيما يحكيه القرآن هنا عن عادة الجاهليين أو الماديين من سخريتهم من طلب الإنفاق منهم على أصحاب الحاجة ، عندما يقولون : « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه — . تعقب الآية التي تحكي هذه السخرية بقول الله تعالى — : إن أنتم إلا في ضلال مبين » . أي في حيرة واضحة . لأنهم لا يدركون آثار شحهم وبخلهم في مجتمعهم . وهي آثار ستنتهي حتما بتدمير الأشحاء والبخلاء وتغيير المجتمع كله ، بسبب تفشي الأحقاد وإمساك منفعة المال العامة عمن لا يملكون وهم أصحاب حاجة ملحة .

* * *

• والتغيير النفسي الذي يعتبر ضرورة تسبق التغيير الاجتماعي لا يحدث في نظر الإسلام بالإلزام أو إكراه على طريق السلطة الخارجية . فالحياة النفسية يؤثر فيها الاقناع والمنطق . ولكن الإلزام أو الإكراه قد يسبب عناداً مضاداً . فإن لم يبد هذا العناد فلأنه قد غلف بالنفاق والتهرب من الالتزام .

والخطوات التي يتخذها الإسلام للتغيير النفسي تتمثل :

أولا — في توضيح الأخطار التي تترتب على العادات والتقاليد التي تسود المجتمع المادي أو الجاهلي .

ثانياً — بعد فترة من التوضيح : النهيُ عنها .

ثالثاً — الترغيب فى العادات الأخرى البديلة التى تصور المستوى الانسانى .

رابعاً — بعد فترة من الترغيب : الأمر باتباع هذه العادات المرغوبة .

وهنا يتم التحول ، إذا كان الإيمان صادقاً :

فمثلا يُرغِّب فى الإنفاق ، كما تذكر سورة الحديد فى قول الله تعالى :

« آمنوا بالله ورسوله ،

وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ،

فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير »(١) .

وفى قوله فى السورة نفسها أيضاً :

« وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ، ولله ميراثُ السموات والأرض »(٢) .

فمع كون القرآن يشير فى الآية الأولى إلى أن المال مُسْتَخْلَفٌ عليه من الله ، والمالكَ الحقيقى له هو الله تعالى ويشير فى الآية الثانية صراحةً إلى أن الله هو الذى يؤول إليه كل ما فى الدنيا : يعد بالأجر الكبير والجزاء الأوفى لمن أنفق فى سبيل الله وسد حاجة المحتاج معه فى أمته .

وكان يكفى فى الإقناع بالإنفاق أن يذكر أن المالكين المال مفوضون فيه فقط . ويجب أن يسيروا إذن فى إنمائه وفى صرفه طبقاً لتعاليم المالك الحقيقى لماله ، ولكن ذكر الأجر الكبير والجزاء الأوفى للمنفق هو حث له وترغيب فى أن ينفق بحريته ومشيئته . فيحفظ عليه إنسانيته التى يلتزم عن طريقها ، ولا يلزم بأمر خارج عنها .

وهكذا : فالإقناع هو العامل فى التحول النفسى والاجتماعى ، وليس الإكراه والالزام . وهكذا : التحول الاجتماعى لا يتم إلا بعد تحول نفسى .

---

(١) الحديد : ٧ (٢) الحديد : ١٠

إختلاف المجتمعات فى الكفر والإيمان
ضرورة إنسانية

• إن حياة الإنسان على الأرض تمثل تجربة « يمر بها » وهى تجربة يتضح فيها موقفه من النعم والمتع المادية التى أحيطت بها على هذه الأرض. وهى تساوق تلك النعم التى وضع أمامها آدم، وحواء فى الجنة قبل نزولهما إلى الأرض، والتى سيعيشها الإنسان نفسه فيما بعد هذه التجربة فى الحياة الأخرى، إن كان موقفه فى دنياه هو موقف الممتثل لطاعة الله.

والإنسان طالما هو موجود على هذه الأرض فهو بأجياله العديدة المتلاحقة يعيش فى نفس التجربة إلى يوم: أن يقضى الله بإنهائها، وبانتقال الإنسان إلى مرحلة الجزاء التالية وهى مرحلة العذاب أو النعيم، أو مرحلة النار أو الجنة.

وكانت رسالة الله لآدم وحواء فى الجنة، ثم رسالته على الأرض إلى الأجيال المتعاقبة منهما: تدعو الإنسان فقط إلى عدم الإسراف فى هذه المتع أو فى هذه النعم.

إذ أن الإسراف كما هو مصدر ضرر للمسرف. هو مصدر ضرر أيضاً لمن حرم منها:

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد،

« وكلوا واشربوا، ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين.

« قل: من حرم زينة الله التى أخرج لعباده، والطيبات من الرزق؟

« قل: هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا، خالصة (أى لهم) يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون »

« قل : إنما حرم ربى الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن ،
والإثم ، والبغى ، بغير الحق ،
وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ،
وأن تقولوا على الله مالا تعلمون »(١) .

« والممتثل لطاعة الله — أو المؤمن به — هو المكافح أو المجاهد فى سبيل عدم الإسراف . . هو المتحكم فى شهوته وفى هواه . . هو المسيطر بصومه على شهوة البطن ، والفرج ، واللسان . . وبإخراج الزكاة على شهوة الملك والمال . . وبالجهاد بالنفس وبالأولاد على الأنانية والعصبية .

وغير الممتثل لطاعة الله — أو الكافر به — هو الذى يترك الأمر لشهوته ولهواه . . هو الذى لا يبذل جهداً فى التحكم فى نزوات النفس . . هو الذى لا يفرق بين الحلال والحرام ، طالما فى أى منهما استمتاع للبطن وللفرج . . هو الذى لا يعرف الاعتداء على حرمات الآخرين فى أعراضهم، وفى أموالهم ، وفى نفوسهم ، ولا يميز هذا الاعتداء عن الالتزام بما لا يضر الآخرين ولا يؤذيهم ولو إيذاء معنويا .

• وبرسالة الله انقسم الناس إلى طائعين وغير طائعين . . وإلى مؤمنين وكافرين . . وإلى إنسانيين وماديين . . وإلى موحدين ووثنيين :

« كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ،

وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات ، بغياً بينهم ،
فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه »(٢) .

وسيستمر هذا الاختلاف بين الناس : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة

---

(١) الأعراف : ٣٣ (٢) البقرة : ٢١٣

واحدة ولا يزالون مختلفين[1] . سيستمر المؤمنون والكافرون . . ويستمر الأنانيون والماديون الجاهليون . حتى يأتى الوقت المعلوم الذى ينتقل فيه الناس من تجربة هذه الحياة الأرضية .. إلى حياة الجزاء فى الآخرة . ستستمر رسالة الله ، ورسالة إبليس معاً إلى يوم البعث : « قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون ؟ . قال : فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم ، قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصين »[2]

وهكذا : لا يأس لمجتمع مؤمن مع وجود طغيان مجتمع مادى . فالإيمان بالله لا يخبوا ضوؤه إطلاقا . وعلى المؤمنين أن يتمسكوا بإيمانهم . فنصر الله لهم مرهون بقوة الإيمان والصبر على الابتلاء .

***

اختلاف الشعوب يدعو للتعارف بينها

• هى سنة الحياة البشرية : أن يلتقى المتقابلان فى الوجود، وأن يكونا وحدة فيما بينهما على أساس الميل الطبيعى فى لقاء أحدهما بالآخر ، ولكى يتم الانسجام بين وحدات الوجود الإنسانى خلق الله بينهما الذكر والأنثى ، أى خلق بينهما التقابل فى التكوين كدافع إلى التقارب ، كما خلق بين كل مجموعة منها وأخرى ما يحرك إلى اللقاء فيما بينها .

فعامل التقابل بين الأفراد من بنى الإنسان — فى الذكورة والأنوثة — وهو ذاته عامل التقارب بينها . والاختلاف بين المجموعات أو الشعوب فى أصلها وعرفها هو نفسه العامل الدافع على التقارب لبعضها البعض . يقول الله فى شأن هذه الظاهرة أو فى هذا المبدأ : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر

(١) هود : ١١٨

(٢) ص : ٧٩ — ٨٣

وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »(١) . فتكشف الآية أن غاية التقابل بين الذكورة والأنوثة فى خلق الإنسان ، وبين الشعوب القبائل فى المجموعات البشرية ، هى التقارب والتعارف وليست النفرة والخصومة .. هى اللقاء فى وئام وانسجام . وهذا معناه: أن أفراد الإنسان لو كانوا جميعاً من الذكور ، أو جميعاً من الإناث لما كان هناك وئام وانسجام بينهم ، ولكانت الخصومة والنفرة هى السائدة فى العلاقات بينهم . وكذلك لو كان الناس جميعاً من شعب واحد أو قبيلة واحدة لكان أمر العلاقة عندئذ بين الأفراد هو هذا الأمر من النفرة وعدم الوئام ، وبالتالى لما قام مجتمع إنسانى تسود فيه روح الاطمئنان ، والمودة والرحمة بين الأفراد .

• ونرى القرآن يجعل من الدلائل الدالة على الله سبحانه : أن خلق الموجودات بين الناس وفيما عدا الناس ، على أساس الزوجية ، أى على أساس التقابل والاختلاف بين أفراد النوع الواحد . يقول تعالى : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض . ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون »(٢) . كما نراه يجعل الهدف المباشر للزوجية أو للتقابل بين أفراد الإنسان ليس التعارف فقط ، وإنما الوصول بالتعارف إلى الترابط على تحقيق السلام والاستقرار ، والتعاون القائم على الرحمة والمودة ، مما يميز شأن المجتمع الإنسانى عن أن يكون مجتمع عدد وكم لا غير : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »(٣) .

---

(١) الحجرات : ١٣
(٢) يس : ٣٦/٣٧
(٣) الروم : ٢١

فالتضاد فى الحياة ليس عامل هدم . بل هو عامل بناء . والنقيض لا يلغى نقيضه فى الوجود ، إنما يخرج منه ، كما يتحول إليه : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » .

● وإذن ليس هناك فضل ذاتى لأحد طرفى التقابل على الآخر .. ليس هناك فضل للذكر على الأنثى ، ولا للأنثى فضل على الذكر . كما ليس هناك فضل لقبيلة على أخرى فى ذاتها ولا لشعب على شعب آخر فى ذاته ، والتقابل بين الطرفين يعطى فقط : أن وظيفته هى حملها على اللقاء والتقارب والتعارف.

أما الفضل إن وجد بين أفراد الإنسان ، أو بين القبائل والشعوب فهو يعود إلى المعانى الإنسانية التى قد تتوفر فى جانب من جانبى التقابل دون الجانب الآخر . فالرجل قد يفضل المرأة لا لأنه رجل وهى امرأة ، والمرأة قد تفضل الرجل لا لأنها امرأة وهو رجل ، ولكن لأن الفاضل منهما أكثر إنسانية فى سلوكه وتهذيبه . وكذلك الشأن فى تفضيل قبيلة على أخرى وشعب على آخر . فالمعانى الإنسانية هى التى يعود إليها وحدها فضل إنسان على آخر وفضل شعب على شعب ، وليست الفروق التى تعود إلى الجنس أو العرق . يقول الله فى التعقيب على توضيح الهدف من الزوجية فى الخلق: « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . (أى إن أقربكم وأفضلكم فى مقياس التفضيل عند الله : أكثركم تجنباً للانحراف فى السلوك الإنسانى ، وأبعدكم فى التهذيب فى معاملة بعضكم بعضاً) .

***

تفاضل الأفراد فى المجتمع فى الأرزاق وفى مستوى الإنسانيه ظاهرة طبيعية

• ليس أفراد المجتمع متساوين — فى نظر القرآن — إلا فى الاعتبار الإنسانى ، ولذا يجب أن يوفر كل فرد للآخر هذا الاعتبار . وقد نهى الله عن انتقاص المؤمن للمؤمن والسخرية به فى قوله تعالى :

يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن .

ولا تلمزوا أنفسكم (أى لا تعيبوا إخوانكم المؤمنين فأنتم إذ تعيبونهم تعيبون أنفسكم) .

ولا تنابزوا بالألقاب (أى لا يدعوا بعضكم بعضاً بما يكرهه من اللقب).

بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان (وأن سخرية بعضكم من بعض وانتقاص بعضكم لبعض . . ونداء بعضكم لبعض بما هو بغيض إليه من الألقاب : خروج عن خط الإيمان) ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون (ومن لم يرجع عن ذلك وشبهه — وقد كان فى الجاهلية — يكون ظلم نفسه ، كما ظلم غيره)[(١)]

فالحرص على الاعتبار الإنسانى لجميع الأفراد سمة للمجتمع الإسلامى . وهو المجتمع الذى تحول بالإيمان بالله عن الجاهلية والوثنية المادية فى أى وقت إلى الروابط الإنسانية فى صلات الأفراد بعضهم ببعض .

• وما وراء الاعتبار الإنسانى : هناك تفاضل بين الأفراد ، فهناك تفاضل فى التقوى ودرجة الإيمان :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ،

وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ،

---

(١) الحجرات . ١١

إن أكرمكم عند الله أتقاكم»(١).

فالناس إن خلقوا جميعاً من أصل واحد وهو التقاء الذكورة مع الأنوثة فليسوا بعد ذلك متساوين فى الطاقات البشرية، كما إذا انتسبوا إلى شعوب مختلفة وقبائل عديدة فليس اختلافهم فى الشعوب والقبائل بلازم أن يكون سبباً لأن ينكر بعضهم بعضاً . بل بالأحرى هو سبب لتعرف بعضهم على بعض وإذا كان اتحاذ الأصل فى خلق الإنسان لا يوجب التساوى فى الطاقات البشرية فكذلك الإيمان بالله لا يوجب التساوى فى الطاقات البشرية . فكذلك الإيمان بالله لا يوجب التساوى فى مستوياته ودرجاته. بل المؤمنون يتفاوتون فى مستوى الإيمان ويفضل بعضهم بعضاً فى درجته .

• وكذلك يتفاوتون فى الأرزاق ويفضل بعضهم بعضاً درجات فيها . ولكن الهدف من هذا التفاوت هو ابتلاء الله لمن أنعم عليهم بها ، وليس لأن يستعلى أحدهم أو يطغى بما يتميز به من مال على الآخر :

« وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض (يخلف بعضكم بعضاً فى ملكية الأموال والتصرف فيها) .

(ورفع بعضكم فوق بعض (أى فى الأرزاق وملك الأموال) درجات (أى جعلكم متفاوتين ومتفاضلين : يفضل بعضكم بعضاً فيما يملك من مال ويزيد فى ثرائه عن الآخرين) ليبلوكم فيما آتاكم (أى فالقصد من هذا التفاوت فى ملكية المال هو الابتلاء والاختبار فيما أعطى المالك من مال : هل سيتصرف فيه طبقاً لتوجيه الله فى كتابه فيخرج زكاته ، ولا يستخدمه فى إثم أو عبث؟ هل سيشح فيه ويعبده من دون الله ؟ هل سيرى فى ملكية المال أنه مفوض

(١) الحجرات ١٣

فقط من جانب الله : فى إنمائه وتثميره وصرفه ؟ هل سيرى أنه مستخلف عليه ووكيل فيه وليس بمالك أصيل له على الحقيقة) .

• إن ربك سريع العقاب (لمن يخالف توجيه الله وعلى الأخص فى المال) وإنه لغفور رحيم (لمن تاب والتزم بما أراده الله من تفضيل الناس على بعض فى الأرزاق والأموال)[١] .

• وهكذا : كان تفاضل الناس فى مستوى الإيمان .. وفى الأرزاق وملكية المال : ظاهرة طبيعية بين أفراد المجتمع لا يلغيها تساوى الناس فى كونهم جميعاً من ذكر وأنثى . الناس متساوون فى الاعتبار البشرى ، ولكنهم متفاوتون فى الطاقات والاستعدادات البشرية ، والتفاوت فى الطاقات والاستعدادات هو أساس التفاوت فى الإيمان ودرجات الملكية للمال .

***

الحرب ضرورة بشرية

• قد يستضعف الأفراد فيعتدى عليهم فى صورة عديدة من صور الاعتداء .

وقد تستضعف الجماعات فيعتدى عليها فى الأنفس والأموال والكرامات .

وقد يسخر من القيم والمبادىء العليا فيعتدى عليها بالكبت، والتحريف، والتشويه والصد عنها بكل طريق .

وليس مطلوباً من الأفراد والجماعات أن يستسلموا للاعتداء، وليس مطلوباً كذلك من المؤمنين بالقيم والمبادىء العليا فى حياة الإنسان : أن يرضوا أو يسكتوا على مواجهة الاعتداء على هذه القيم ورده .

(١) الأنعام : ١٦٥

وقد أودع فى فطرة الإنسان الميل إلى المقاتلة والمدافعة حفاظاً على الذات. ولكنه ميل يسترشد بحكمة العقل وتوجيه رسالة الله ، فليس ميلا أعمى كما هو عند الحيوان ، يدفع إلى الاعتداء وليس لرفع الظلم ووقف التهديد به ، والوقاية منه .

* وقد أذن القرآن فى توجيه الرسالة الإلهية المؤمنين بأن يباشروا القتال ضد الأعداء عند تحقق واحد من أمرين :

الأمر الأول : عندما يعتدى عليهم منهم بسلب أموالهم أو بإخراجهم من ديارهم أو بالتربص بهم وإيذائهم . يقول تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا (أى أذن المؤمنين بقتال أعدائهم بسبب ظلم هؤلاء الأعداء لهم بالاعتداء عليهم بالقتال وسلب الأموال والإخراج من الديار) وإن الله على نصرهم لقدير (ونصر الله لهؤلاء المؤمنين على أعدائهم عندئذ أمر مؤكد ومفروغ منه فهو داخل فى قدرة الله ونافذ طبق إرادته) الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله (ولم يكن هناك من سبب فى اعتداء الأعداء على المؤمنين إلا لأن هؤلاء أعلنوا إيمانهم بالله وتمسكوا بالوحدة فى الألوهية مخالفين لهم فيما يعتقدون ويؤمنون)[1] . ويدخل فى نطاق رد الاعتداء بالفعل : قتال الأعداء وقاية من عدوانهم وظلمهم .

والأمر الثانى : عندما يعتدى على دين الله والإيمان به فتنتهك بيوت الله أو تهدم ، أو تحرف رسالة الله فى أجلى صورة لها ، وهى تلك الصورة التى يعرضها آخر كتاب نزل من عند الله : ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض (أى ولولا مشروعية القتال وجوازه لرد الاعتداء ، ولولا إذن الله للمظلومين وهم المؤمنون بقتال الطاغين والمعتدين وهم الماديون والوثنيون) لهدمت صوامع

---

(١) سورة الحج : ٣٩/٤٠

(وهى منازل الرهبان) وبيع (وهى أماكن العبادة لدى النصارى) وصلوات (وهى كنائس اليهود) ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً (أى لم يبق مكان من أماكن العبادة) ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوى عزيز. الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر »[١].

وبمشروعية القتال عندالاعتداء أو للوقاية منه: على الأفراد والجماعات، أو على دين الله والإيمان به ويقيم الإسلام هذه المشروعية على فطرة فى الإنسان، وعلى ميل أعدّه الله فيه للحفاظ على الذات وبقاء النوع البشرى، وهو الميل إلى المقاتلة.

وبتوجيه القرآن لمشروعية القتال وبروز الأهداف التى ينبغى على الإنسان أن يحافظ عليها ولو بالقتال: وهى حياة الناس وما فيها من حرمات الأنفس والأموال والديار، ودين الله وما يتصل به من أمكنة العبادة وكتاب الله.

وليس الاعتداء على دين الله إذن بأقل من الاعتداء على حياة الناس وأموالهم وديارهم، فى وجوب صده والوقوف فى طريقه، ولو كانت الأرواح هى السبيل إلى ذلك: « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن »[٢].

***

---

(١) الحج: ٤٠/٤١ (٢) التوبة: ٠٠٩

الإلحاد ظاهرة من ظواهر الحياة الإنسانية

الملحدون هم الذين يكفرون برسالة الله فى دينه .. ويؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، أى يفضلون الدنيا ومتعها المادية على السلوك السوى للإنسان فيها . . وينكرون الحياة الآخرة ويصدون عن سبيل الله ، لا بالإعراض عنها فحسب ، وإنما يحمل الآخرين على التشكك فيها ، وبدعواهم عدم جدواها وصلاحيتها وبرغبتهم فى أن تبدو معوجة غير مستقيمة وغير نافعة : « وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولئك فى ضلال بعيد »[١] .

وظاهرة الإنكار لرسالة الله ، وتحدى صلاحيتها فى حياة الإنسان من أجل أنها ظاهرة تصاحب الطبيعة البشرية فى أى جيل ، توجد فى نفر قليل أو كثير ، وتبدو أحياناً بدوا واضحاً ، وأحياناً أخرى بدوا مقنعاً . ولكنها لا تختفى إطلاقاً من حياة الناس . لأن هداية الله واتباعها بعد الإيمان بها إذا كانت من وظيفة الدعوة لدين الله ، فهوى النفس وسيطرته على اتجاه الإنسان فى حياته من وظيفة الشيطان أو النفس الأمارة بالسوء ، وهوى النفس لا يدفع إلا إلى الانحراف والاعتداء فى سبيل ما تطلب النفس من رغبات . وفى تبرير الطريق إلى تحقيق الرغبات تنكر النفس الأمارة بالسوء : هداية الله وتقف دون الإيمان بالله ، وتسخر من الاستقامة التى تدعو إليها تلك الهداية .

وهناك إذن بين النفوس البشرية فى هذه الحياة الدنيا : نفس مطمئنة إلى هداية الله ، تقف عليها ، وتسلك طريقها . . ونفس أخرى أمارة بالسوء

---

(١) إبراهيم : ٢/٣

متمردة على تلك الهداية ، تكفر بها وتعارض سبيلها . وهذا الوضع بين النوعين من النفوس مستمر إلى قيام الساعة : « ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه (أى فى شك من القرآن كآخر رسالة لله جل شأنه) حتى تأتيهم الساعة بغتة ، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم . الملك يومئذ لله (ويستمر شك هؤلاء فى القرآن إلى أن يفاجأوا بقيام الساعة ، أو يحل بهم العذاب فى يوم الملك فيه لله وحده وهو يوم البعث والنشور) [١] .

والمؤمن بالله إذن لا ييأس عند ما يرى الإلحاد قد انتشر أو قوى سنده ، فإنه مهما قوى ساعده لا يميت الإيمان فى نفس القلة المؤمنة آنئذ ، ولا يذهب به إطلاقاً . وإنما قد تكون قوته فقط فى إرهاب المؤمنين . وصدق الله العظيم حين يتحدى إبليس فى أن يكون له سلطان على عباد الله المخلصين ، فيحولهم من الإيمان إلى الكفر بقوله :

قال : (أى الله جل جلاله للشيطان) اذهب فمن تبعك منهم (أى من أولاد آدم) فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً .

واستفزز (أى استخف) من استطعت منهم بصوتك (أى بدعايتك ووسائل إعلامك) وأجلب عليهم بخيلك ورجلك (أى واحشد عليهم قوتك المادية فى أنواعها المختلفة) وشاركهم فى الأموال والأولاد (فتقيدهم من التصرف فى أموالهم ، وتحد من حريتهم فى توجيه أولادهم ، أملا فى أن يخضعوا لك ويتحولوا إلى أعوانك) وعدهم (وقدم لهم من وعود الإغراء ما تشاء فى جنات لهم على هذه الأرض سهلة المنال ، فيها فاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة) وما يعدهم الشيطان إلا غرورا .

إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا »[٢] .

(١) الحج : ٥٥/٥٦

(١) الإسراء : ٦٣/٦٥

فقوى الشر أو النفوس الأمارة بالسوء مهما سلطت على المؤمنين من ألوان تحدياتها : من وسائل الإعلام . . إلى حشد جميع قوات الإرهاب ، إلى انتزاع الأموال من أصحابها ، والأولاد من آبائهم وأسرهم ، إلى الوعود المغرية الخادعة بالدنيا ومتعها المادية : فإنها لا تنزع الإيمان بالله ممن سماهم الله عباده .. وهم الذين يعيشون للإيمان ، وفى سبيله .

وهكذا : الإيمان بالله باق ، مهما اشتد ظلام الإلحاد ، والصبر وحده هو الذى سيحول ظلام الإلحاد إلى نور الإيمان يوماً ما .

وهكذا : الإلحاد مهما اشتد فإنه لا يطمس معالم الإيمان ، ولا يخيفه ولا يرهبه .

***

سقوط المجتمع يتبع حرمان أصحاب الحاجة

• إن استخلاف الله للإنسان على المال فى هذه الأرض ليس معناه قصر الإنفاق من المال على المالك له وحده ، وإنما معناه تفويضه فى إدارته وإنمائه ، على أن تكون ثمرته بينه وبين أصحاب الحاجة معه فى مجتمعه ، ولذا كان لهؤلاء حق فى المال الخاص ، وهو حق الانتفاع بثمرته وفائدته ، تغطية لحاجاتهم . ويستوفون هذا الحق منه فى الوقت الذى يحين فيه للمالك أن يقطف ثمرته ويأكل منها :

« كلوا من ثمره إذا أثمر (فيطلب لمن تحت أيديهم الأموال لإنمائها وتثميرها من الملاك والمستخلفين عليها من الله جل جلاله أن يباشروا الانتفاع بثمرتها على الوجه الذى يرونه) .

وآتوا حقه يوم حصاده (وإذ يطلب من الملاك مباشرة الانتفاع بثمرة الأموال التى يملكونها : فإنه فى الوقت نفسه يطلب إليهم أيضاً : أن يؤدوا

حق أصحاب الحاجة من هذه الثمرة ، رغم أنهم لا يشاركون فى ملكيتها . . وأن يؤدوه من غير تأخير لم ، فى الوقت الذى يصبح صالحاً للانتفاع بثمرة أموالهم وهو وقت حصاده ، ويطلق على نصيب أصحاب الحاجة من ثمرة الأموال المملوكة لغيرهم: حقاً ، للإفادة بأن أصحاب الحاجة لا يقلون إلى مدى الانتفاع بثمرة الأموال عن المالكين لها) .

ولا تسرفوا (أى فى الأكل منها ، وبذلك تبددونها فلا يبقى منها شيء لأصحاب الحاجة ، أو لا يبقى منها إلا القليل الذى لا يفيد) إنه لا يحب المسرفين »[1] .

فأمرت الآية بشيئين .. ونهت عن ثالث : أما ما أمرت به فهو :

أولا : أن المالكين للأموال : لهم حق استثمارها ، والانتفاع بثمرتها .

وثانياً : أن عليهم أن يخرجوا من ثمرتها إذا حل وقتها من غير إرجاء : حق أصحاب الحاجة ليكون انتفاعهم به مساوقا فى الوقت لانتفاع المالكين أنفسهم . وحق أصحاب الحاجة هو ما يعرف بالزكاة أو بالإنفاق لوجه الله.

وأما ما نهت عنه فهو :

ألا يبدد الملاك ثمرة أموالهم فى الترف والعبث وأوجه الإنفاق الخاصة التى تعود على المالك بالضرر ، كما تعود على صاحب الحاجة بزيادة الحرمان ويسمى هذا التبديد بالإسراف .

ولم يكتف القرآن بتسمية نصيب أصحاب الحاجة فى ثمرة الأموال الخاصة: حقاً ، لتأكيد مشروعيته ووجوب أدائه ، بل ينذر الأثرياء الذين يملكون الأموال الخاصة ويبخلون بثمرتها فلا يخرجون منها حق أصحاب الحاجة ، أو

---

(١) الأنعام : ١٤١

يسرفون فى إنفاقها فلا يبقى لهم شىء منها : بوجوب تغييرهم وإحلال غيرهم محلهم ، فى ملكية هذه الأموال وتثميرها ، ممن يحافظون على حقوق الآخرين فى ثمرة المال ، وإن كانوا لا يملكون فيه ، يقول تعالى :

« ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله (والانفاق فى سبيل الله هو إعطاء المحرومين حقهم فى ثمرة الأموال المملوكة لغيرهم) فمنكم من يبخل (أى فلا يؤدى هذا الحق) ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه (أى أن أثر بخله سيعود عليه نفسه ، وهو تقويض مجتمع الأغنياء البخلاء وإقامة مجتمع بديل يؤدى فيه الغنى حق المحروم والفقير وهو المجتمع الإنسانى) والله الغنى وأنتم الفقراء (ويجب أن تعلموا : أنكم بأموالكم فقراء إلى الله ، إذ الله وحده صاحب الغنى .. لأن غناه بذاته) وإن تتولوا (أى تنصرفوا عن الإنفاق المطلوب ولا تسمعوا لهذا الإنذار الإلهى) يستبدل قوماً غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم (فى البخل . أى لا يكونوا كما كنتم ماديين . وإنما يكونون إنسانيين ، تحكمهم الروابط الإنسانية وحدها ، وهى التعاون .. والتواد .. والتآخى) (١) .

وهكذا : حق المحروم فى مال المالك حق إلهى .. لا يسقط إطلاقا وإنما يسقط من يشح فيه من المالكين .. ويبقى الله صاحب الملك والتدبير .

***

العبث الجماعى جريمة عظمى فى حق المجتمع

● إن أهم ما يحفظ على الأمة تماسكها هو ما تؤمن به من قيم ومثل عليا. لأن مجتمعها أساساً قام على هذه القيم والمثل . ولذا تجب وقايتها من العبث أو التهديد به ، وأسلوب الوقاية يختلف باختلاف المباشر للعبث ، فإن باشرته

---

(١) محمد : ٢٨

مجموعة متفقة فيما بينها كان خطرها أكبر وكان جرمها واضحاً فى حق قيام المجتمع وبقائه متماسكا . ومن أجل ذلك نجد القرآن الكريم ينصح بمقابلة مثل هذه المجموعة الهادمة بالاستئصال أو بإبعادها تماماً من المجتمع بقول تعالى:

« إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله (بتحريف ما لله وللرسول ، أو بالسخرية منه ، أو بالصد عنه ودعوة الناس إلى تركه وعدم الإيمان به ، أو بتوجيه الناس إلى الإلحاد وتزيين الجاهلية فى نفوس الشباب منهم) ويسعون فى الأرض فساداً (وبذلك يخلقون جواً غير مستقر فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، ويشيعون الاعتداء على حرمات الآخرين فى أموالهم وأعراضهم ، ومساكنهم) :

أن يقتّلوا .

أو يصلّبوا .

أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف .

أو ينفوا من الأرض »(١) .

فأية صورة هنا من صور المقابلة للعبث الجماعى بالقتل ، أو التصليب ، أو تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف ، أو النفى من أرض المجتمع – كفيلة بإبعاد الاضطراب والفساد فعلا ، أو بإبعاد التهديد به . وفى الوقت نفسه أية صورة من هذه الصور هى إعلان عن عدم وفائهم وولائهم فى الحياة الدنيا لمجتمعهم ولمبادئه : « ذلك لهم خزى فى الدنيا » . . هذا بالإضافة إلى ما ينتظرهم فى الآخرة من عذاب لا يحد كنهه: « ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »:

والجزاء على العبث الجماعى على هذا النحو يعتبر ضرورة اجتماعية للابقاء على وحدة المجتمع وبقائه صفاً واحداً فى مواجهة أعدائه .

---

(١) المائدة : ٢١

وربما يقال : إن الإسلام بتحديد هذا الجزاء الكبير يكبت حرية الرأى والعقيدة . ولكن فى واقع الأمر الإسلام لا يتجه بهذا الجزاء لكبت حرية الرأى . وإنما يتجه به إلى الحفاظ على حرية الاعتقاد للآخرين الذين لا يشاركون فى هذا العبث الجماعى ، وعلى حقهم فى ممارسة ما يعتقدونه حسب إيمانهم والتزامهم بنتائجه .

على أن الإلحاد أو محاربة رسالة الله ودعوة الرسول عليه الصلاة والسلام وإشاعة البلبلة والاضطراب عن طريق ذلك : ليس تعبيراً عن رأى ، وإنما هو انطلاق وفوضى ، ومحاولة لتقويض المجتمع أو إضعافه على الأقل ، وحمله على قبول التبعية لأجنبى عنه هو عدو له فى حقيقة الأمر . ومحاولة تقويض المجتمع بالسخرية من قيمه العليا التى يؤمن بها ، وبالتشكيك فى المبادىء التى هى أساس تماسكه وبقائه إن لم تقابل بصورة من صور الجزاء التى حددتها الآية هنا فإنها ستؤدى إلى حرب أهلية تدفع الأمة ثمنها، من التمزق والوقوع تحت سلطة سفك الدماء والتعذيب والتشريد لأولئكم الذين كانت جريمتهم أن قالوا : ربنا الله .

والإسلام يقبل الخلاف فى الرأى داخل إطار المبادىء العامة التى رسمت فى رسالة الله فى القرآن والسنة الصحيحة . ولكن إن أدى الخلاف إلى نزاع أو مخاصمة فى الأمة فيوجب على المختلفين جميعاً مراجعة كتاب الله وسنة رسوله : «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر (أى إن كنتم قد تحولتم عن الجاهلية والمادية) ذلك خير وأحسن تأويلا »[١] .

---

(١) النساء : ٥٩

إن الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الأرض فساداً ليسوا أفراداً لا تربط بينهم صلة إلا الاتجاه إلى الالحاد فرادى وصدفة . وإنما هم مجموعة تتكون قصداً وتستهدف محاربة دين الله والسعى بالفساد فى أرض الأمة ومجتمعها . والقصد من محاربة دين الله بأى أسلوب ، وإشاعة العبث فى الأمة عن أى طريق هو عماد جريمتهم الاجتماعية . ولذلك يستحقون : أن يقتلوا ، أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض .

***

المجتمعات ينتهى أمرها الى أصحاب المستوى الإنسانى

الرسل جميعاً هم أصحاب دعوة إلى الإنسانية . أى أصحاب دعوة إلى إحلال المبادىء الإنسانية فى الروابط بين الأفراد داخل المجتمع الواحد ، وبين المجتمعات بعضها مع بعض محل المبادلات المادية والمنفعية والمصلحية وحدها التى ترتكز على الأنانية .

إذ العلاقات بين أفراد الإنسان أو بين المجتمعات الإنسانية ، أما أن يغلب عليها التواد، والتعاون ، والسلام ، وعدم القلق والاضطراب ، بجانب ما هنالك من تبادل لمنافع ، ولكن فى ظل المبادىء الإنسانية . ومثل هذه العلاقات تدعو إليها رسالة الرسل جميعاً . ومن هنا كان الرسل حملة السلام إلى الإنسانية ، وكان دين الله هو الإسلام . وإما أن تسيطر عليها المنفعية أو الأنانية وحدها ، فالقوى فى علاقته بالضعيف ، والكبير فى صلته بالصغير ، ينشد المصلحة الخاصة به وحدها ، ولو تضيع فى سبيلها مصلحة الضعيف أو الصغير . وهنا يسود الاستعمار فى أشكاله المختلفة بين الشعوب ، ويسود أكل مال اليتيم والضعيف فى صورة ما بالباطل فى المجتمع الواحد فى غير رحمة أو شفقة.

وقد أوحى الله إلى الرسل جميعاً باعتبار أنهم أصحاب دعوة إنسانية بهذا المضمون : أوحى إليهم بأن يهلك المعارضين لهم ، وهم الظالمون أو

فالآكلون أموال الناس بالباطل فى المجتمعات البشرية ، وبأن يسكنهم هم الأرض من بعدهم . ويحكى القرآن الكريم وعد الله هذا فى قوله تعالى : « فأوحى إليهم (إلى الرسل) ربهم : لنهلكن الظالمين ولنسكننكم (أى الرسل وأصحاب الدعوة إلى الله بعدهم) الأرض من بعدهم »[1] . ثم يشير القرآن إلى أن هذا الوعد قد سجل فى الزبور من كتب الرسل السابقين ، كما سجل فى القرآن الآن: « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر (وهو القرآن): أن الأرض يرثها عبادى الصالحون »[2] . أما تسجيله فى القرآن فتقصه سورة النور فى قول الله تعالى :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم .

وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ،

وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ،

يعبدوننى، لا يشركون بى شيئاً »[3] ،

ويقصد القرآن بالذين آمنوا وعملوا الصالحات : الإنسانيين ، وهم الذين يقيمون علاقتهم بالآخرين على أساس إنسانى أولا، من المساواة فى الاعتبار البشرى ، وفى الحقوق الإنسانية فى البقاء ، والعمل، والحياة الإنسانية الكريمة الحرة . ويقصد بالظالمين : الذين تتمكن منهم النزعة المادية الخالصة التى لا تنطوى على رحمة بالضعفاء ولا بالصغار.. أولئكم الذين يعيشون على حساب حياة غيرهم ، أو على حساب كرامتهم وحقهم فى الوجود ، بأى صورة وبأى أسلوب .

---

(١) إبراهيم : ١٣/١٤ (٢) الأنبياء : ١٠٥

(٣) النــور : ٥

والله إذ يعد بإهلاك الظالمين يعد فى الواقع بأمر موجود قائم بالفعل ، ولكنه يظهر عندما يصل فقط إلى نهايته . فالأفراد ، أو المجتمعات أصحاب النزعة المادية لابد أن يخاصم بعضها بعضا ، وأن يقاتل بعضها بعضا ، وأن يحارب بعضها بعضا . فإن لم تغير حرب واحدة نزعتهم المادية الأنانية تلتها حرب ثانية فثالثة . . وهلم جرا . إلى أن تفنى هذه النزعة أو تكبت ولو إلى حين ، ويحل محلها الاتجاه الإنسانى بين الأفراد والجماعات . فإذا ضعفت هذه الاتجاهات بعد ذلك وقويت النزعة المادية : فمعنى ذلك وجود روح الخصومة والقتال والحرب . وهكذا يدور الأمر بين اتجاه إنسانى ونزعة مادية .. يدور الأمر بين تعاون وتواد وطمأنينة من جهة ، وقلق واضطراب وخصومة وحرب من جهة أخرى . وتلك سنة الله فى الوجود الإنسانى إلى يوم البعث ، وسنته كذلك فى أن يتقوض مجتمع المادية ليحل محله مجتمع الروحية أو المجتمع الإنسانى .

***

متع الدنيا لا يحرم منها من لا يؤمن بالله

كثير من الناس يعتقد أو يتصور : أن الإيمان بالله سبب فى فيض الله من نعمه على المؤمنين به .. وبالتالى أن من لم يؤمن بالله لا سبيل له إلى متع الدنيا ، أو ينبغى أن تسد عليه منافذ المتع فيها .

ولكن فى رأى القرآن ليست هناك صلة وثيقة أو ضعيفة بين الرزق فى الدنيا ، كثرة وقلة ، من جانب ، والإيمان أو عدم الإيمان بالله من جانب آخر . أى لا يربط الله سبحانه بين الرزق والإيمان ، وبين عدمه والكفر بالله . يقول جل جلاله :

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها

لا يبخسون، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون»[١]. أى أن أولئكم الذين يكفرون بالآخرة — وهم الماديون الذين لا يرون فى حياة الإنسان إلا المتع المادية وحدها — ويقصرون سعيهم وعملهم فى الدنيا على تحصيل متعها وما يعد زينة فيها .. هؤلاء ... لا يبخس نصيبهم من هذه المتع المادية بسبب كفرهم وبعدهم عن الإيمان بالله واليوم الآخر . بل يوفون ما يكون لهم، بغض النظر عن معارضتهم الإيمان ورسالة الله للإنسان على هذه الأرض . ولكن لهم عقابهم فى الآخرة فى نار جهنم جزاء لعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر مهما كان لهم من عمل خيّر فى حياتهم الدنيوية، طالما كانوا مصرين على عدم الإيمان ، فإنه عديم الاعتبار ، ولا يغير من استحقاقهم الجزاء السيء شيئا «وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون».

فالقرآن الكريم يضع أمام الرسول عليه السلام المبدأ — وهو مبدأ الفصل التام بين الاستمتاع بمتع الحياة الدنيا والكفر بالله واليوم الآخر — بعد أن يؤكد له فى آية سابقة فى قوله تعالى» فإن لم يستجيبوا لك (أى لم يستجب لدعوتك هؤلاء الماديون المكيون) فاعلم . أنما أنزل بعلم الله (أى فتأكد أن القرآن أنزل إليك بعلم الله) وأن لا إله إلا هو (كما تتأكد أنه ليس فى الوجود إلا الله وحده . وهى دعوة الرسالة الإلهية عموما) » بعد أن يؤكد له هاتين الحقيقتين : حقيقة وقوع القرآن وحقيقة وجود الله وحده فى هذا الكون .

والقرآن يفصل فصلا واضحاً بين نعم هذه الحياة ومتعها من جانب والكفر والإيمان بالله من جانب آخر، لأنه يرى : أن الدنيا والحياة فيها فترة اختبار للإنسان . هى اختبار بالحصول على النعم ، واختبار أيضاً بالحرمان

---

(١) هود : ١٥/١٦ .

منها : ونبلوكم بالشر (وهو الحرمان والفقر) والخير (وهو النعم ومتع الحياة المادية) فتنة »[1] فمن أعطى نعمها فهو مختبر بطريق التصرف فيها، فمن اهتدى إلى الإيمان بالله وإلى الطريق السوى فى معرفة حقه وحق الآخرين فيما يملك منها كان فى طاعة الله . وكذلك من صبر على الحرمان منها ولم يقنط من رحمة الله .

ولولا نصر الله الدنيا ونعمها على مؤمن به لما اتضح للآخرين معه موقفه من الحرمان من هذه النعم . ولو قضى الله أيضا بحرمان الكافر لما أتاح له فرصة تظهر فيها تصرفاته عند الاستمتاع بها .

ثم من جهة أخرى ليست الدنيا دار جزاء ، وإنما دار الجزاء هى الدار الآخرة وحدها . وطالما أن الدنيا ليست دار جزاء على الإيمان والكفر بالله فالعدل الإلهى يقضى بأن سعى الإنسان من أجل الدنيا ، ولو كان مصراً فى معارضته للإيمان بالله ، لابد أن يصل إلى غايته ويحقق نتائجه . ومن هنا كان منطق القرآن فى هذا الشأن فى قوله تعالى : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » : منطق العدل ومنطق الأمر الطبيعى الذى ينطلق إلى نهايته بعد تحقيق مقدماته ، دون عقبات تعترض طريقه .

والمدعون للإيمان بالله وهم وحدهم الذين يتشككون بسبب الحرمان ، أو يهتز إيمانهم بغير المؤمن الذى تكون له وجاهة فى الدنيا بماله أو بقوته .

***

من يؤثر الدنيا على دين الله يترقب نهايته

فرق بين أن يستمتع الإنسان بمتع الحياة الدنيا ، من غير أن يؤثرها

(١) الأنبياء : ٣٥ .

على دين الله ، وبين أن يؤثر هذه المتع على دين الله . فالمستمتع بمتع الحياة الدنيا من غير أن يؤثرها على دين الله لديه مكان — وربما أوسع — فى حياته لتطبيق مبادىء الدين مع استمتاعه ، جنبا لجنب . . لله نصيب فى ماله ، وفى تجارته ، وفى عمله . . يشارك فى الجهاد فى سبيل الله بنفسه ، وولده ، وماله . . هو إنسان فى علاقاته بالآخرين ، يشاركهم فى سرائهم وضرائهم ، مؤمن بالله كما هو مؤمن بالبعث واليوم الآخر .

ولكن من يؤثر متع الحياة الدنيا على دين الله ليس لديه فى الحياة أى مكان لتطبيق مبادىء دين الله . يؤمن بالحياة الدنيا وحدها، بينما يكفر بالله، وإن لم يعلن الكفر به ، يؤمن بالبقاء الأبدى لهذه الحياة ، بينما ينكر اليوم الآخر. أسرته وعصبيته أقرب إلى نفسه وقلبه من الله ورسوله. حرصه على المال المدخر والتجارة الرابحة، والمساكن المترفة يملك عليه جميع نفسه،فلا يرى بعدها إنسانا يعطف عليه ، أو جاراً بعيداً أو قريباً يشاركه عواطفه وأحاسيسه . إنه يعيش لنفسه وأقربائه ، دون من سواهم . إذا ناداه الجهاد فى سبيل الله صم أذنيه ، وإذا واجهه ما يكره دين الله تجاوزه ببصره : وإذا طلب إليه أن يشارك فى إيذاء الآخرين أوفى تعذيبهم أو إرهابهم . استجاب لما يطلب منه ، طالما يعود عليه من المشاركة بمال أو جاه يستخدمه فى الحصول على مال جديد .

نوعان إذن من الناس : نوع تواتيه نعم الله فلا يطغى بها ، وإنما يقدّم فى حياته ما لله على ما لنفسه ، ومع ذلك يعرف فضل الله فيستمتع به . ونوع تواتيه هذه النعم فيكفر بها : إذ يوجهها إلى الترف ، أو الطغيان ، ومن ثمّ إلى الإلحاد والصد عن دين الله . فهو لا يرى الله وراء هذه النعم ، فضلا عن أن يراه هو مصدرها .

هذا النوع الثانى بنظرته إلى هذه النعم ، وبموقفه منها على هذا النحو ، يهدم ذاته أولا . فليس هناك مترف لم يصل بترفه إلى العبث والفساد. وليس هناك طاغ لم يسلك بطغيانه طريق الظلم . والظلم طريق الضياع .

والآية الكريمة فى قول الله تعالى :

« قل : إن كان آباؤكم ، وأبناؤكم ، وإخوانكم ، وأزواجكم، وعشيرتكم،

« وأموال اقترفتموها (أى كسبتموها) ،

« وتجارة تخشون كسادها ،

« ومساكن ترضونها ،

أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره »(١) . هذه الآية تقرن كنتيجة ضرورية عقاب الله ، بإيثار الدنيا ومتعها على دين الله . وعقاب الله يأخذ صوراً عديدة . أما الدنيا التى تؤثر فهى هنا ممثلة فى العصبية ، والأموال المدخرة والتجارة السائدة ، والمساكن المحببة . وأما دين الله فهو منهج الحياة الإنسانية المستقيمة .

● وإذا شئنا الآن أن نحدد توجيه القرآن فى هذه الآية. فنجد أن الأمر المبغوض إلى الله هو فقط وقوع الإنسان تحت إغراء ما فى الدنيا من متع . تلك المتع التى تتصل بالقوة المادية الممثلة فى العصبية . كما تتصل بالمال المدخر والتجارة المزدهرة ، وبالإقامة فى المساكن المريحة . وآية وقوعه تحت الإغراء: تجاهله دين الله فى نعم الله عليه .

وإذ تربط الآية هنا بين عقاب الله من جانب ، وإيثار متع الدنيا على دين الله من جانب آخر فإنها تصور مبدأ هاما من مبادىء الحياة الإنسانية لا يتخلف إطلاقا هو : أن من يؤثر الدنيا على دين الله ينتظر على الأقل الزوال

(١) التوبة ٢٤ .

حتماً . والمؤثر للدنيا هو الطاغى والباغى ، والعابث بمتع الدنيا . لا يعرف إلا نفسه وجماعته ، كفر بنعمة الله ، ولم يشكره عليها بتوجيهها فيما أوصى به كتاب الله .

***

المنفعية فى عبادة الله طريق الخسران

بعض الناس يدخل فى دين الله ، لا إيماناً به كطريق ومنهج مستقيم فى حياة الانسان ، ولكن كسبيل إلى تحصيل منفعة . وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا البعض بقول الله تعالى : « ومن الناس من يعبد الله على حرف » .. أى يعبده وهو واقف على طرف . . غير مستقر فى إيمانه ، وغير مطمئن فى عبادته ، يترقب الأمر : « فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه » .. أى إن أصابه مال وفضل من الله هدأ باله مؤقتاً . وإن لم يصبه مال ، بل استمر على وضعه فى الفقر ، أو فقد جزءاً مما يملك ولّى وأدار ظهره لما آمن به .

فإيمانه إيمان منفعة دنيوية ، وانضمامه إلى جماعة المؤمنين سبيل للحصول على هذه المنفعة . وهذا البعض من الناس يحكم القرآن على سلوكه الانتهازى ، بالخسران ، فى قوله : « خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين » [(١)] .. فهو خاسر فى الدنيا ولو أصاب مغنماً من إعلانه الإيمان . لأن الإيمان لم يكن عندئذ مصدراً لمصلحة تعود على الذات كإنسان بالهداية ، واستقامة السلوك الإنسانى ، بل كان مصدراً لعرض دنيوى يأتى ويزول . وهو خاسر فى الآخرة لأن الله يعلم نفاقه فيما آمن به ، ويعلم أنه متأرجح فى هذا الإيمان . فإيمانه غير مقبول عنده ، وإن عبد الله فصلى ، وصام ، وزكى : « وما منعهم

---

(١) الحج : ١٢

أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون »[١] :

***

هذا الذى يعرضه القرآن الآن — كظاهرة من ظواهر المجتمع البشرى — يعود إلى مبدأ فى الطبيعة البشرية . . يعود إلى الرغبة فى الاحتراف بالقيم العليا ، واستخدامها كوسيلة إلى الحصول على المنفعة بدلا من ممارستها فى حياة الإنسان. والذين يميلون إلى الاحتراف بها ينتهزون الوقت الملائم. وهو وقت الإعلان عن إصلاح أو تغيير جذرى فى المجتمع . وهو عادة الوقت الذى تطرح فيه قيم جديدة،وكذلك الوقت الذى يترقب فيه أصحاب الدعوة إلى الإصلاح أو التغيير : أن يبارك دعوتهم أنصار لها من بين أعضاء المجتمع. وقد كانت دعوة الإسلام دعوة إلى تغيير المجتمع القائم على عهد الرسالة ، وتحويله من مجتمع تسود فيه المادية العلاقات بين الناس إلى مجتمع تعلو فيه الروابط الإنسانية غيرها من روابط أخرى.فقد جاء قوله تعالى:«واعتصموا بحبل الله جميعاً » . . تعبيراً عن الترابط الجديد . وهو الترابط على أساس الهداية الإلهية ومبادئها . وهى مبادىء تمثل القيم العليا فى حياه الإنسان . فى الوقت الذى يحذر فيه من العودة إلى العلاقات المادية التى كانت ، وهى علاقة الدم أو العشيرة والقبيلة ، عندما تستطرد الآية فتقول:« ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم (أى الآن بعد الهداية) إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا »[٢] .

وفى عصرنا السياسى تتغير القيادات فى المجتمع لسبب أو لآخر . وفى كل مرة يعلن فيها عن التغيير يطل المحترفون بالقيم العليا ، ويعلنون الولاء

---

(١) التوبة : ٥٤
(٢) آل عمران : ١٠٣

أو الإيمان بالجديد ، انتهازاً فقط للفرصة الجديدة . وهـذا الإعلان للولاء يتكرر ، كلما تكرر التغيير أو أعلنت دعوة إلى الإصلاح .

والاعتراف بالقيم العليا يقوم أصلا على النفاق والانتهازية . والنفاق يمثل خطراً كبيراً على دعوة الإصلاح ، أوعلى وضع التغيير فى قيادة المجتمع. ومن أجل ذلك يتعرض القرآن للنفاق ونتائجه ، فى غير موضع. وأدنى ما ينبه إليه أن يحذر الرسول عليه السلام كقائد وحاكم وصاحب رسالة لتغيير المجتمع؛ من طاعة المنافقين ، فى قول الله تعالى : « ولا تطع الكافرين ، والمنافقين ، ودع أذاهم ، وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا »(١) .

أما المباشرون من المنافقين للاعتراف بالقيم العليا فيكشف عن مصيرهم طال الوقت أم قصر ، بأنه مصير الخاسرين . وهو تجارة خاسرة ، مهما حصل صاحبها من منفعة مادية. لأن المحترف بالقيم العليا يبرهن على أن نفسه من النفوس الأمارة بالسوء . من النفوس الضعيفة التى تتلون وتتشكل،حسبما يراد لها ، فنفسه الآن لا تقاس بمستوى الإنسانية وإنما بمعيار المال كسلعة من السلع العديدة فى هذه الحياة .

***

التوجه لغير الله دليل الضعف

إن دعوة الرسالة الإلهية إلى التوحيد ، وعبادة الله وحده،وطرح الشرك والوثنية ، هى دعوة الإنسان إلى الاحتفاظ بكرامته ، والسعى نحو تنمية ذاته فى خصائصها البشرية ، من الحكمة فى التفكير . والجمال فى الوجدان . . والعزم فى الإرادة.. فالمنطق السليم يجنب الإنسان: الحمق والهوج فى التصرف.

---

(١) الأحزاب : ٤٢

والإحساس بالجمال فى الوجدان يدفع إلى الخير وحب العطاء للآخرين فى غير مقابل . والعزم ينحّى عن الإنسان التردد فى مباشرة العمل .

فوحدة الألوهية — عند الاعتقاد بها — تجعل الإنسان ثابتاً فى تقديسه لصفات الكمال التى تتصف بها الذات الإلهية ، وفى سعيه نحو التقرب منها ، بمحاكاتها . وتأكيد دعوة التوحيد فى رسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام هو لإيقاظ الوعى فى المؤمن الذى يؤمن بها ، بأن يكون الإنسان القوى الذى يسيطر على هواه وشهوته ، والإنسان العزيز على غيره وعلى الأحداث ، فلا يغلب على أمره بمجرد المواجهة ، ولا يستسلم عند أدنى احتكاك واختبار له .

ومتى صار الإنسان إلى القوة والسيادة على شهوته وهواه ، ووصل إلى المنعة على غيره والأحداث معاً ، فهو ذلك الإنسان الذى يتمتع بمستوى رفيع فى الإنسانية : لا يظلم . . ولا يعتدى . . ولا يطغى . . ولا ييأس . ولا يخاصم من أجل شهوة . . ولا يحقد بسبب افتقاده ما عند الآخرين .

* * *

ولهذه الآثار الإيجابية فى مستوى الإنسانية التى تصحب الإيمان بوحدة الألوهية يحذر القرآن البشر إلى يوم البعث · من الشرك والوثنية .. أى يحذر من عبادة غير الله : إنساناً . . أو حجراً . . أو طبيعة من الطبائع . . أو موجوداً من الموجودات . . أو معنى من المعانى : كالعلم ، والإنسانية ، والمجتمع ، والدولة ، والحزب . ويرى أن الوثنية هى مصدر الانحطاط فى الإنسان . . هى مصدر الضعف فيه . . هى مصدر بعده عن الخالق فيما له من صفات الكمال .. هى مصدر الاستسلام للشهوات والأهواء .. هى مصدر الشرور فى البشرية . والوثنية هى التوجه لغير الله ، فى التعظيم والإجلال ،

والخضوع والطاعة . وقد شاء القرآن الكريم أن يوضح آثار الوثنية التى تنعكس على المشرك بالله ، فأجملها فى : الضعف . وهو ضعف الإرادة . . ضعف النفس . . ضعف المقاومة للإغراء . . ضعف المقاومة للاعتداء . . ضعف الاستسلام للوهم والخرافة . . ضعف التصور للعالم والكائنات فيه . يقول تعالى :

يأيها الناس (ويقصد بالناس هنا أولئكم الذين يتجهون بعبادتهم إلى الوثنية والشرك) ضُرِب مثل فاستمعوا له :

إن الذين تدعون من دون الله (أى الشركاء الذين تجعلونهم أنداداً لله ، وتعبدونهم من دونه) لن يخلقوا ذبابا ، ولو اجتمعوا له (أى هم من الضعف فى آحادهم وفى تجمعهم معاً ، بحيث لايستطيعون أن يخلقوا أضعف مخلوق ترونه وهو الذباب) وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه (بل أزيد من أنهم لا يستطيعون خلق الذباب ، إنهم لا يستطيعون أن ينقذوا منه ما قد يكون قد استولى عليه منهم . فليست لهم قدرة على الإيجاد ، ولا على الإنقاذ لشىء غلبوا عليه من مخلوق ضعيف كالذباب) .

ضعف الطالب والمطلوب (وإذن ، فهؤلاء الذين جعلوهم أنداداً لله ضعاف فى ذواتهم بالبرهان العملى ، وكذلك من يعبدونهم من هؤلاء الوثنيين ضعاف كذلك ، بدليل أنهم يعظمون من لاشأن له . ومن يعظم من لا يعظم ، ضعيف فى تصوره وتقديره) .

وما قدروا الله حق قدره (أى : وساءة أن عظموا مالا يعظم ، وعبدوا ضعيفاً فى ذاته من الأوثان والشركاء ، ولم يتجهوا بعبادتهم لله وحده ، لم يقدروا الله حق قدره ، بل ساءوا تقديره) إن الله لقوى عزيز» (فالله هو القوى وهو صاحب المنعة على غيره . فإشراكهم غيره وهم الضعفاء ، له

فى العبادة : بخس فى تقدير ذاته وصفاته سبحانه)(١) . ثم طالما الله هو القوى العزيز فعبادته وحده تنعكس على العابد له ، والمؤمن به . وإذن الايمان بوحدة الألوهية هو مدخل القوة فى الإنسان ، ومدخل عزته ومنعته على الآخرين ، وعلى الأحداث التى تواجهه . بينما التوجه لغير الله دليل ضعف الإنسان ، ثم فى الوقت نفسه مصدر استمرار ضعفه : فى تصوره .. وفى تقديره للأمور ، وحكمه على الأشياء .

وهكذا من يعبد غير الله لا يستحق أن يشار إليه كإنسان . وما أكثر الضعفاء فى عالمنا المعاصر الذين يعبدون غير الله .

* * *

الارتداد عن دين الله لا يشكل حرجاً على الدين

● إذا طغت موجة المادية ، وانتشر الإلحاد فى فترة ما ، فإن كثيراً من المؤمنين بدين الله يخشون على دينه ، ويقلقون على التدين به من الارتداد عنه تحت تأثير تلك الموجة الطاغية ، ويغلب عليهم التشاؤم . ولكن يجب أن يكونوا على بينة من أمرين :

الأمر الأول : أن مجال الحياة الدنيا إلى يوم البعث لا يخلو من الإيمان بالله والكفر به معاً ، والصراع بينهما . إذ ذلك ما وعد به الله إبليس عندما سأله بقوله : « قال (إبليس) رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال (الله جل جلاله) فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قال (أى إبليس) فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين »(٢).

---

(١) الحج : ٧٣/٧٤

(٢) ص : ٧٩ — ٨٣

الأمر الثانى : كما أتاح الله الفرصة فى الدنيا لإبليس كى يمارس نشاطه فى الشر والغواية ، فإنه يعد — محافظة على بقاء الإيمان بدينه — بتغيير المجتمع الذى يرتد عن دين الله ويكثر فيه الإلحاد ، ويشارك إبليس جولته فى الشر ، ويأتى بمجتمع آخر تقوم الروابط فيه على المحبة بين أفراده بعضهم مع بعض ، وبينهم وبين الله سبحانه : يحبونه ويحبهم .. أعزاء وأصحاب منعة على أعدائهم ، بينما هم فى طاعة بعضهم البعض .. لا يدخرون وسعاً فى المحافظة على دين الله ، يفدونه بالمال والنفس .. ولا يخافون فى سبيل دينه حاكماً أو صاحب بطش وقوة ، ولا صاحب نقد أو موجهاً للوم أو عتاب: « يا أيها الذين آمنوا : من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين (أى فى طاعة بعضهم بعضاً) أعزة على الكافرين (أى أشداء وأصحاب قوة ومنعة على معارضيهم وأعدائهم) يجاهدون فى سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم »[١] .

وهذا الوعد من الله بتغيير مجتمع المرتدين عن دين الله عند ارتدادهم ، وإحلال مجتمع مؤمن بالله قوى فى إيمانه محله : هو مبدأ يصور إرادة الله وفضله على البشرية . ولكن متى يكون هذا التغيير للمجتمع الذى يتفشى فيه الإلحاد والارتداد ؟ . ذلك فى علم الله : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم »[٢] .

* * *

« فكثرة الإلحاد وشيوع الارتداد عن دين الله فى مجتمع ما يجب ألا يخيف مؤمناً بالله فيه . وتقرب العلماء للولاة والحكام فى مجتمع ما على

---

(١) المائدة : ٢٤

(٢) المائدة : ٢٤

حساب الإسلام يجب ألا يفزع المتوجسون خيفة فيه على دين الله من طغيان المادية . وشيوع التحريف والخلط واللبس فى إقامة الحجة فى مجتمع ما على تخلف الرسالة الإلهية أو على سلبيتها يجب أن يكون بالأحرى مشعل أمل فى التغيير المرتقب الذى وعد به الله سبحانه . فطالما أفسح الله فى هذه الحياة الدنيوية للشيطان مجالا للشر، الذى يتمثل فى الإلحاد ، وفى الضلال ، وفى الارتداد عن دين الله تحت أى شعار، فإنه حتما يبقى فى هذه الحياة على الإيمان به قائما فى وجه الشر ، لا يفنى كذلك إلى يوم الدين . ولكن فقط الإبقاء على الإيمان بالله فى هذه الحياة الدنيا يكون بإحلال مجتمع مؤمن محل المجتمع الذى كثر إلحاده وارتداده عن دين الله .

ليس هناك حرج إطلاقا على دين الله من الإلحاد وطغيان المادية ، وإن تكن هناك أزمة بالنسبة للمؤمنين القلة عندئذ . وهذه الأزمة ستزول حتما ، فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا .

***

هى أزمة للمؤمنين القلة عندئذ ، ولكنها ليست أزمة للإيمان . لأن الإيمان لا يستأصل ولا يضار ، طالما موطنه القلوب . فأى قلب ينبض بالإيمان كفيل بالمحافظة عليه . ثم ينقله إلى قلب آخر وآخر ، حتى يتكون مجتمع جديد لمؤمنين جدد ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم .

لا يأس إطلاقا مع وجود بصيص من نور الله فى هدايته على الأرض ، مهما قل عدد المؤمنين وكثر الآخرون الملحدون والماديون : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين » .

***

الخروج عن دين الله لا يصيب دعوة الله بسوء

يظن بعض الذين يعلنون إيمانهم بدين الله في صورة أو في أخرى: أن دين الله مدين لهم بالفضل ، وأنهم يعينونه على البقاء . كما يظن بعض الآخرين ممن يصرحون بتحديهم لدين الله وبإعلان السخرية منه: أنهم يسيئون إليه وينتقصون من قيمته بمعارضتهم أو بتحديهم . والقرآن يجمل من بين مبادىء دين الله الواضحة : أن منفعة الهداية به تعود على المهتدى ذاته . . وأن ضرر الضلال والإلحاد والتحدى يعود على المعارض والملحد نفسه :

« من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه .

ومن ضل فإنما يضل عليها »(١) .

فأمر الهداية والضلال أمر شخصى تعود آثاره على الشخص ، دون أن تعود على الدين، بنفع أو ضرر . وعلى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام جاءه نفر من الأعراب بتفكيرهم البدائى ،وهو التفكير المرتبط بالمصلحة الشخصية، وعندما التقى هذا النفر به صلوات الله عليه امتنوا عليه بأن أسلموا وأصبحوا من أمته وجماعته . فنزل الوحى يفصل فيمن هو يجب أن يمتن على الآخر : أهو الله الذى هداهم للإيمان ، أم هم الذين أعلنوا إسلامهم ؟ ، ويحدد أن صاحب المنة هو الله وحده:

« يمنون عليك أن أسلموا

قل لا تمنوا على إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ، إن كنتم صادقين »(٢) .

---

(١) الإسراء : ١٥ (٢) الحجرات . ١٧ .

على أن الذين يرتدون عن دين الله بإلحادهم وبسخريتهم من مبادئه وبتصورهم أنهم أرفع من أن يعبدوا إلها لا يرونه (ولا يستطيعون أن يخضعوا حياته جل جلاله إلى اختيار عضوى أو مادى أو ملاحظة حسية) يجب أن يتوقعوا أن إرادة الله — وهى قانون لا يتخلف عنه أى شأن من شئون الموجودات فى الكون — لا تتركهم إلى غير أجل يستمرئون عبثهم فى التفكير والتصور. وقد أعلنت هذه الإرادة عن نفسها فيما وعد به الله سبحانه فى مصير مثل هؤلاء المرتدين فى أية فترة من الفترات فى تاريخ البشرية، وهو مصير انقضاء أمرهم فى التوجيه والزعامة، وإحلال غيرهم ممن هم أعلى فى حبهم لله والإيمان به، محلهم فى قيادة مجتمعاتهم: « يا أيها الذين آمنوا (أى أعلنوا إيمانهم) من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين (أى أصحاب تواضع فى علاقتهم بإخوانهم المؤمنين) أعزة على الكافرين (وأصحاب منعة وقوة فى مواجهة الملحدين الماديين) يجاهدون فى سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم »(١).

إن تصور الملحدين بإلحادهم والمرتدين عن دين الله بردتهم، أنهم بإلحادهم وبردتهم يقضون على دين الله تصور ضيق. دفع إليه غرورهم واستكبارهم، وغفلوا فى الوقت نفسه عن سنن الحياة البشرية والقوانين التى تحكم هذا الكون، وهى سنن وقوانين تفصح عن تدبير الله، وقدرته وشمول علمه. لم يسألوا أنفسهم: لماذا تتغير المجتمعات؟. ومتى تتغير؟. وهل تتغير إلى الضد أو النقيض، أم تتغير إلى المساوق والشبيه؟

إن تغير المجتمعات هو تغير فى قيادتها وفى مبادئها فمجتمع الرسول عليه السلام يختلف عن مجتمع الجاهلية والمادية السابقة عليه: فى قيادته وفى القيم

---

(١) المائدة: ٥٤.

العليا التى آمن بها أفراده ، وفى العادات والتقاليد الجديدة التى دفعهم التحول الإسلامى إلى تكوينها والسير عليها . أما أفراده فهم من الأفراد السابقين ، والقوى منهم فى الإيمان كان القوى أيضا فى الجاهلية والمادية السابقة عليه . والتغير من المجتمع الجاهلى والمادى السابق إلى المجتمع الإسلامى والإنسانى هو تغير من النقيض إلى النقيض ، وليس تغيراً إلى الشبيه .

وإذن إذا ساد الإلحاد والارتداد فترة من الزمن لا بد أن تتغير هذه القيادة المرتدة والملحدة إلى قيادة على النقيض منها ، وهى القيادة المؤمنة .

وإذا استحال أن تسود موجة الإلحاد والارتداد عن دين الله إلى يوم البعث فإنه من المتوقع : التغيير. ولكن متى ؟ ذلك مرهون بإرادة الله. وعلى كل حال : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » .

***

غير المؤمن بالله لا يقدم على القتال إلا عند التفوق فى الإعداد والتحصين

● يخبر الله المؤمنين بأن نفوس الماديين من بنى إسرائيل تهتز وتضطرب كثيراً إذا التقت بهم ، كمؤمنين بالله ، واهتزازها ، واضطرابها من المؤمنين أكثر من اهتزازها واضطرابها من الله العزيز الحكيم : « لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله » . ويعلل القرآن ذلك بقول الله تعالى بعد هذا : « ذلك بأنهم قوم لا يفقهون (أى لا يستخدمون المنطق والفهم السليم فى حياتهم . إذ لو استخدموا المنطق والفهم فى اعتقادهم وتصرفاتهم لآمنوا بالله وحده ،

ولم يكفروا بالبعث والحياة الأخروية . وإذا وصلوا بالمنطق وحجة العقل إلى الإيمان بالله أصبحوا لا يخشون أحداً إلا الله وحده . ولكنهم وقعوا تحت تأثير المادية : يقدرون القوة المادية وحدها . . ويخشون العدد والكم . . ويؤثرون المشاهد المرئى ، ويتوجسون خيفة من حجمه وضخامته.ولو علموا: أن إيمان المؤمن بالله هو الذى يدفعه إلى القتال والاستشهاد فى ميدانه،والجهاد فى سبيل الله ، بعد النفس ، وبالمال ، والولد ، لقدروا الروح أكثر من تقديرهم للكم الجسم)[1] .

وتفريعا على إخبار الله المؤمنين بهذا الوضع النفسى للماديين من بنى إسرائيل : يعلن المؤمنين بنتائج هذا الوضع فى حياة أولئكم الماديين ، حتى يستطيع المؤمنون أن يحددوا موقفهم منهم :

فيذكر أن أولئكم الماديين من بنى إسرائيل — وهو شأن عام للماديين أينما وَجدوا فى أى وقت ومكان — لا يتوجهون لقتال المؤمنين ولا يباشرون مقاتلتهم إلا فى حصون محكمة ، أو من وراء جدار . أى من وراء مانع من الموانع التى تعطى للمقاتل فرصة التفوق على مقاتله . وهى فرصة الاحتفاظ بحياته من جانب ، وإصابة المقاتل الآخر من جانب آخر . وقد يكون هذا الجدار استحكاما من الاستحكامات الحربية . . وقد يكون تقدما علميا فى نوعية السلاح الذى يستخدمه المقاتل . ويقول فى ذلك القرآن الكريم : « لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة ، أو من وراء جدر » .

ويعود القرآن بعد ذلك لتوضيح : أن تجمع الماديين عند القتال فى القرى المحصنة أو من وراء جدر لا يعبر عن وحدة متماسكة بينهم . لأن الماديين عادة تفرقهم المصالح الشخصية . إذ طالما الأنانية تسود تفكيرهم ،

---

(١) الحشر . ١٤ .

وطالما تسود المصالح الفردية الروابط بينهم ، فإن تجمعوا فلوقت قصير ، ولا يتجمعون إلا إذا ضمنوا الوقاية من الأخطار على حياتهم كأفراد : « بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى (والمراد بالبأس بينهم هو الخصومة بين بعضهم بعضاً ، ولا تحل الخصومات فى العلاقات بين الأفراد إلا إذا سادت الأنانية وساد الحرص على المنافع الشخصية وحدها . فإذا اشتد البأس واشتدت الخصومة بين الأفراد ، فحتما لا يوجد تجمع منهم ، يعبر عن وحدة متماسكة بينهم . إذ قلوبهم عندئذ موزعة ومفرقة . وهى شتى ، حسب تعدد الأهواء فى المنافع الفردية) . « ثم يكرر القرآن مرة أخرى سبب وجود هذه الظاهرة فى حياة الماديين ، وهى ظاهرة الفرقة ، وعدم التماسك ، فيقول : ذلك بأنهم قوم لا يعقلون (أى لا يستخدمون حكمة العقل فيما يفكرون ويعتقدون وإنما تغريهم ماديات الحياة ويقعون تحت تأثيرها ، ويشتد سعيهم للاستمتاع بها ، وبذلك تبقى الأهواء والشهوات مسيطرة عليهم ، وليس العقل ، وليست الحكمة) .

وخلاصة ما يوحى به الله فى هذه الآية فى سورة الحشر :

أولا : أن الماديين من بنى إسرائيل — كشأن الماديين عادة — يرهبون المؤمنين ، ويخشون لقاءهم فى القتال .

ثانياً : أنهم إذا أرغموا على قتال المؤمنين قاتلوهم فى حصون محكمة ، وفى تفوق استراتيجى يضمن لهم الوقاية من الأخطار .

ثالثاً : إن تجمعهم فى وقت من الأوقات لا يدل على تماسكهم وعلى وحدتهم . بل الخصومة الفردية بينهم شديدة ، سعياً وراء المنافع المادية .

وهكذا عوامل الضعف فى الجانب النفسى قائمة لدى الماديين . ولا يمكن

لم أن يغيروا هذه الظاهرة النفسية لديهم ، إلا إذا غيروا أنفسهم أولا . وتغيير أنفسهم بتغيير منطقهم وتفكيرهم فى الاعتقاد والسلوك . إذ عندئذ يسهل عليهم الإيمان بالله ، وهو وحده الضمان للتغلب على عوامل الضعف .

والمؤمنون بالله يجب عليهم لذلك : أن يأخذوا فى حسابهم عند تحديد موقفهم من الماديين : هذه الظاهرة النفسية . وهى ظاهرة الحرص على الحياة التى ينشأ عنها التردد فلا خروج إلى القتال ، إلا فى ظل وقاية قوية ، وفى ظل ضمان من الأخطار ، وإلى وقت قصير إن خرجوا فى ظل الاطمئنان النفسى إلى الوقاية الكافية . وقد وصف القرآن اليهود الذين وقعوا تحت تأثير المادية ، وكذلك الوثنيين الماديين بقوله : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا ، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة »(١) . أما المؤمن إذا استشهد فى سبيل الله فيعتقد أنه حى يرزق عند ربه ، ولذا هو يسعى إلى الاستشهاد فى ميدان القتال : ... « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله »(٢). وهكذا الايمان عامل إقدام . . والمادية عامل تردد ونكوص .

* * *

إعلان الحق تعبير عن قوة الإيمان

ينطق الإنسان بالحق بينه وبين نفسه . . وقد ينطق به فى غيبة التهديد والخوف من الآخرين . . ولكن النطق بالحق على هذا النحو أو ذاك ، لا يدل على الإيمان عندئذ فضلا عن القوة فيه . والناطق بالحق على هذا النحو أو ذاك : لم يمارس الحرية البشرية فيما أعلن أو فيما نطق به . لأن الحرية

---

(١) البقرة . ٩٦ .
(٢) آل عمران . ١٦٩/١٧٠

ليست هي التمكين من الممارسة ، ولكنها الممارسة عندما تكون هناك قيود من الآخرين ، تحول عادة دونها .

إعلان الحق يكون دليلا على قوة الإيمان به ، عندما يوجد تهديد من الآخرين ضد إعلانه ، أو عندما يوجد خوف من الآخرين بسبب إعلانه . أي عندما يكون الجو لإعلان الحق غير خال من العقبات ، أو المخاوف .

إعلان الحق فضيلة إنسانية . شأنها شأن كل الفضائل التي يتميز بها فريق من الناس على فريق آخر . والفضائل الإنسانية تكتسب بالإرادة والتحمل تكتسب بالسعي والمجاهدة النفسية . . تكتسب بالعمل القائم على الشجاعة والثبات . فقدرة الإنسان على الحرمان من المتع المادية لا تكون فضيلة إلا إذا استطاع الإنسان أن يحصل على هذه المتع أولا ، ورغم الحصول عليها يمارس الحرمان منها . ولا تكون إطلاقا عند العجز وعدم التمكن منها .

وعطاء الإنسان للآخرين لا يكون فضيلة إنسانية إلا إذا كان عن إرادة وعن رغبة قوية في العطاء : (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيراً) . ولا يكون فضيلة إذا دفع إليه الخوف من الآخرين ، أو التهديد منهم . إذا دخله الإلزام من الغير .

كذلك الإعلان عن الحق يكون دليلا على قوة الإيمان ، إذا نشأ عن إرادة قوية تذلل العقبات أو تتجاوز العقبات القائمة . . إذا كانت هناك مجاهدة نفسية في وقوعه .

وكذلك الحرية البشرية لا تكون فضيلة يمارسها الإنسان إلا إذا رافقها سعى لعدم الاهتمام بالقيود ، والتغلب نفسياً على الصعاب التي يضعها الآخرون .

ولأن المجاهدة النفسية أمر ضرورى فى كسب الفضائل . . أى مجاهدة الشهوة والهوى ، والخوف ، والتهديد : ضرورة فى كون الفعل أو عدم الفعل يتصف بالفضيلة كان المتصفون بالفضائل الإنسانية هم القلة بين الناس.. كانوا هم الآحاد بين العشرات والمئات .

والرسل عليهم الصلاة والسلام كانت مجاهدتهم النفسية فى فترات حياتهم مقدمة فى اختيار الله إياهم لرسالته للناس . فإذا قرأنا قوله تعالى بشأن إبراهيم عليه السلام : «قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه (أى نموذج وقدوة حسنة) إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ، ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا ، حتى تؤمنوا بالله وحده »(١) . . إذا قرأنا هذه الآية وجدنا أن إعلان إبراهيم مع القلة التى آمنت به . للحق فى عبادة الله وحده ، كان دليلا على قوة الإيمان منه ومن القلة المؤمنة به . . وكان دليلا كذلك على أنهم جاهدوا أنفسهم حتى وصلوا إلى حرصهم على الحق والإعلان عنه . فظروف معيشتهم بين الكثرة المادية من شأنها أن تضع الصعاب فى طريقهم إلى الإيمان بالحق أولا ، ثم إلى إعلانه ثانيا . وقد أعلنوا الحق فى وقت هددوا فيه بالرجم والقطيعة . فعلى أثر إعلان إبراهيم : الإيمان بوحدة الألوهية — وهو الحق الذى اعتقده — وجه إليه أبوه هذا التهديد : « قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك ، واهجرنى مليا »(٢) . وإبراهيم فى إصراره على الإيمان بالحق والدعوة إليه جهاراً ، لم يملك إلا أن يشفق على أبيه .. وإلا أن يعتزل قومه فى باطلهم فكان جوابه : « قال : سلام عليك سأستغفر لك ربى ، إنه كان بى حفيا ، وأعتزلكم وما تعبدون من دون الله(٣) .

---

(١) الممتحنة : ٤ (٢) مريم : ٤٦ (٣) مريم : ٤٨

ولا شك أن موقف إبراهيم من أبيه وقومه ينطوى على مجاهدة نفسية ، كما أنه تعبير عن الحرية التى يمارسها الإنسان متجاوزا بها القيود والصعاب التى تكتنف ممارستها ، ولذا كان موقفاً معبراً عن قوة الإيمان بالحق .. وبالتالى كان أسوة حسنة للمؤمنين الأحرار .

***

• قوة الإيمان كفيلة بتعويض النقص المادى فى مواجهة الأعداء :

قضية « بدر » أن المؤمنين كانوا ضعافا . كانوا قليلى العدد ، وقليلى العدّة ، بينما أعداؤهم من الماديين الوثنيين كانوا على العكس : كانوا كثيرى العدد ، وكثيرى العدة .. كانت الزعامة لهؤلاء فى المجتمع المكى ، وكان الأتباع مع كثرة عددهم رهن إشارتهم فى الحرب قبل السلام . وكان المال مثلا فى جوانب عديدة ، وفيرة لديهم ، ورغم عدم التكافؤ بين الطرفين : طرف المؤمنين .. وطرف الماديين الوثنيين إذ ذاك ، كان النصر للضعفاء فى القتال ، عندما اشتبكا فى « بدر » . كان النصر للمؤمنين وهم على القلة فى العدد والكفاف فى المعيشة ، والتواضع فى الإعداد ، وسوء الوضع فى ميدان القتال . ويحكى نصر المؤمنين فى هذه الموقعة قوله تعالى : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة (أى وأنتم ضعاف فى الجانب المادى) فاتقوا الله لعلكم تشكرون (أى فاستمروا فى اتباع هداية الله لعل استمراركم فى اتباعها يكون تعبيرا عن شكركم إياه على هذا النصر فى تلك الموقعة)»[1] .

هل كان نصر تلك القلة من المؤمنين ببدر نتيجة لمفاجأتهم الأعداء عند عودتهم من رحلتهم من الشام؟ أى هل لم يتوقع هؤلاء الأعداء أن تفاجئهم تلك القلة المؤمنة بالمدينة وهم فى طريق عودتهم إلى مكة ؟ فلما فاجأتهم

---

(١) آل عمران : ١٢٣ .

واعترضت طريقهم ظنوا — أو اعتقدوا — أن المؤمنين لا يواجهونهم ، مع علمهم بقوتهم ، إلا وهم أنفسهم أقوياء .. إلا وهم كثيرون فى عددهم ، وإلا وهم على إعداد قوى للقتال؟ أى أن عنصر المفاجأة كان من عوامل النصر . إذ أرهب هؤلاء الأعداء . ومتى ملك الرعب قلوبهم فلا يستطيعون أن يدبروا شأن القتال ، فضلا عن أن ينتصروا فيه ، ويشير القرآن إلى ذلك فى قوله تعالى : « بل الله مولاكم ، وهو خير الناصرين ، سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا »(١) .

فعنصر المفاجأة « ببدر » كان سببا مباشراً فى رعب الأعداء واضطرابهم فى القتال ، بينما شركهم بالله وكفرهم به كان السبب فى أن دبر المؤمنون بالمدينة لهم هذا الاعتراض الذى فاجأهم . وتدبير المؤمنين هذا الظرف لأعدائهم يمثل إرادة الله فى هذا الكون . لأن ما يقع فيه لابد أن يكون مراداً لله .

هل الإيمان بالله لدى المؤمنين عند ذهابهم لاعتراض أعدائهم « ببدر » فى طريقهم إلى ديارهم .. وعند لقائهم بهم فى ساحة القتال قد بلغ فى نفوسهم مستوى جعلهم يرون الشهادة فى سبيل الله هى أسمى هدف لهم فى حياتهم ، فتجاوزوا بنظرهم كل شىء فى الدنيا إلا أن يبيدوا أعداءهم الآن ، إفساحا لطريق الإيمان ، بحيث لا يعوق أن يسد ثانية من الصادين عنه ، والعابثين بالقيم الإنسانية فى حياة المجتمعات البشرية ؟ إن مستوى الإيمان الذى كان عند المؤمنين ببدر لم يكن يتطرق إليه ضعف إطلاقا وهم فى ساحة القتال ، بعد أن ازدادت ثقتهم فى الله بالنصر آنذاك ، إن هم صبروا وتحملوا ، وإن هم ظلوا على اتباعهم لهداية الله ، ويحكى هذا قوله تعالى : « إذ تقول للمؤمنين

---

(١) آل عمران : ١٥١ .

(أى فى بدر)ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين؟
بلى : إن تصبروا وتتقوا،ويأتوكم (أى الأعداء) من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين »[1] . وإمداد الله المؤمنين بالملائكة قصد به اطمئنانهم إلى نصره ، والثقة فى وعده بالنصر لهم ، إن هم التزموا : التحمل والصبر على المكاره والمشاق فى القتال . . والتزموا اتباع هداية الله فى التضحية بالنفس والمال ، فى سبيل دعوة الله ومؤازرتها ، وفى التوكل عليه .

وهكذا . كان عامل المفاجأة فى الحرب .. وعامل الإيمان فى قوته وفى اتباع هداية الله من العوامل التى عوضت ضعف المؤمنين ، وحولت هذا الضعف إلى نصر واضح ، ويحكى هذا النصر قوله تعالى : « وما جعله الله إلا بشرى لكم (أى ما جعل النصر مع الضعف فى العدد والعدة إلا بشرى لقوة الإيمان ، ودليلا على أن الإيمان عامل حاسم عند القتال) وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم (وما وقوع النصر إلا بإرادة الله و إرادة الله تقرن النصر دائما بالإيمان به ، والاستشهاد فى سبيله »[2] .

***

• قوة الإيمان : فى عدم الاستسلام للصعاب والأزمات

إن الإيمان بالله غاية فى ذاته . وليس وسيلة لتحصيل المنافع لذات المؤمن . لأنه هو الاستناد إلى القيم العليا فى العلاقات بين الناس جميعاً ، فمهمة الإنسان فى حياته أن يعيش لمطلوب العقل ، والقلب فيه . ومطلوب العقل هو السلام فى نفس الفرد.. والسلام كذلك بينه وبين غيره . ومطلوب القلب هو العواطف الإنسانية التى تتمثل فى مثل : المودة والمعاونة..والرحمة

---

(١) آل عمران : ١٢٤/ ١٢٥ (٢) آل عمران : ١٢٦ .

ص القوى للضعيف . ومطلوب البطن والفرج فيه إذن يجب أن يكون ف خدمة القلب والعقل ، وليس على حسابهما .

والإيمان بالله إن وجد ـ وهو الذى يدفع إلى الاستناد إلى القيم العليا فى العلاقات بين الناس ـ وجد معه توا مطلوب القلب والعقل . وكلما قوى الإيمان فى الإنسان كلما تزحزح إلى الوراء مطلوب الشهوة للبطن والفرج ، وكلما تقدم فى نفس الإنسان الثبات على القيم العليا ، أى الثبات على السلام والاطمئنان .. والثبات على المودة ، والمعاونة ، والرحمة . وعلى العكس إن انعدم الإيمان أو ضعف ، وأصبح مطلوب الشهوة هدفا يسعى الإنسان إليه وحده ، بينما القلب والعقل فى خدمة هذه الشهوة ووسيلة من وسائل تحصيلها. عندئذ تطغى الأنانية فى الذات . وإذا ما طغت الأنانية فى كل الأفراد كان الإنسان تابعا لشهوته . والشهوة عمياء لا تبصر . ومن هنا كان الأنانى فى ضلال وحيرة : لا يعرف طريق السلام والاطمئنان لنفسه ، بينما تجره غريزة الدفاع عن النفس إلى الخصومة والمقاتلة للآخرين . كما لا يعرف غيره من الأفراد فى الوجود معه ، أولا يعترف بوجودهم ، كما يعترف بوجود ذاته . وبالتالى لا يعرف قيمة عليا فى علاقته بهذا الغير .. لا يعرف مودة ، ولا معاونة ، ولا رحمة بينه وبين الآخرين .

• والمؤمن بالله ينتظر أن يلقى من الذين لا يشاركونه الإيمان : عنتا ، ومشقة ، وقتالا خفيا أو صريحا . ينتظر ذلك منهم ، لأنهم لا يريدون أن يروا أحداً يحرك بينهم الإيمان بالقيم العليا فى علاقات الأفراد . . لا يريدون أن يكون هناك نقد مباشر أو غير مباشر لأسلوب حياتهم ، وهو ذلك الأسلوب الذى ينفر من المشاركة الوجدانية أو المشاركة العملية فى حياة الناس ، ويركز على السعى

لمنافع الذات وحدها ، ولو على حساب حياة الآخرين ، فى أى جانب من جوانبها .

وإذ ينتظر المؤمن بالله المشقة والعنت والقتال فى حياته من الآخرين ضده، فإن صبره وتحمله ، وعدم استسلامه للصعاب والأزمات هو الحل الوحيد لاجتيازه هذه الصعاب ، ثم لاحراز النصر الأخير على أعدائه ، مهما كان وضعه هو ، ومهما كانت المفارقة واضحة بين وضعه هو القليل ، والضعيف ، ووضع الآخرين من القوة المادية والإمكانيات العديدة المتاحة لهم . لأن وضع أى إنسان ليس له ثبات ، وبالأخص وضع الملحدين . لأن عامل التفرقة بينهم قوى ، وهو عامل الأنانية والسعى وراء المصالح والمنافع المادية ، والحرص على حضورها فى حياتهم . والتنازع والتفرقة من معاول هدم التكتل والتماسك بين الأفراد ، وبالتالى من العوامل التى تحول قوة التجمع إلى ضعف ، وعزة القوى إلى ذلة .

وتاريخ الأنبياء فى قصص القرآن الكريم يركز على توضيح الأثر الإيجابى للإيمان القوى للرسول والذين آمنوا معه ، ليس فى تخطى العقبات فقط . وإنما فى بناء مجتمع يخرج من الضعف فى العدد والإمكانيات المادية إلى القوة المادية والمعنوية ، وفى نصر مبين لأصحاب القيم والمثل العليا فى الحياة الإنسانية على الماديين الذين يعيشون لأنفسهم وحدهم ، رغم الطاقات العديدة التى تكون متوفرة لديهم ، يوم أن كان أصحاب الإيمان قلة فى العدد والإمكانيات.

ويذكر القرآن من هذا القصص قول الله تعالى : « وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير (أى كثير من الأنبياء فى تاريخ الرسالة الإلهية قاتل معهم الألوف من الناس) فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله (أى فما ضعفوا

فى دعوتهم إلى الحق وفى تمسكهم به ، بسبب التحديات التى يواجههم بها أعداؤهم) وما ضعفوا وما استكانوا (وفى لقائهم مع الأعداء فى القتال : لم تبد عليهم آمارات الضعف ولم يخالج نفوسهم أمر الاستسلام للعدو إطلاقا ، وذلك بفضل تحملهم وصبرهم على مواجهة التحدى فى السلم ، وعلى مشقة القتال وعنفه فى ميدان الحرب) والله يحب الصابرين (ومن أجل أن الصبر قوة وأنه نصف الإيمان ، يبلغ رضاء الله على المؤمنين الصابرين درجة الحب لهم . ولذا هو سبحانه حفىّ بوقايتهم من الهزيمة وبتوفيقهم إلى النصر) وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين (ومن دعاء هؤلاء المؤمنين يتضح أنهم لا يشركون الدنيا فى إيمانهم وفى قتالهم من أجل الإيمان . وإنما كان دعاؤهم خالصا لتثبيت أقدامهم فى ميدان القتال ، ولنصرهم على أعداء الحق وهم أعداؤهم ، مما يدل على أن عدم استسلامهم فى القتال ، والصعاب والأزمات فى وقت الحرب ، والسلم ، كان بسبب قوة إيمانهم مما دفعهم دائما إلى الصبر والتحمل فالنصر والعزة)(١) .

* * *

• التطبيق العملى هو محك الإيمان :

• كثير من الذين يعلنون ولاءهم ، ويعبرون عن إيمانهم يحترفون بما يعلنون به . . يبغون كسبا ماديا ، أو جاها ، يتوسلون به إلى المتعة المادية .

والمؤمن الحق إذا انتظر شيئا من إيمانه فى حياته فهو أن يقدم التضحية بالنفس ، والمال فى سبيل ما يؤمن به . ويجىء قول الله تعالى : «إنما المؤمنون

---

(١) آل عمران : ١٤٦ .

الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون »(١) .. يجىء هذا القول مقننا لمقياس سليم يقاس به الإيمان الحق ، ويفصل به بينه وبين الاحتراف به .

والجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال هو الأمر المرتقب من مؤمن بالله ورسوله ، لأنه ليس من السهل أن يسلك الإيمان بالله طريقه فى مجتمع مادى أو جاهلى ، دون مقاومة من زعمائه ، ودون أزمات وشدائد ، تواجه المؤمنين وقد تهزم هزا عنيفا فى بعض الأحيان . فإن لم يكن المؤمن على استعداد نفسى لتقبل التعذيب والإرهاب ، وتقبل المحن فى ماله ، فإنه لا يستطيع مواجهة الطغيان .

والإيمان بالله إذن معادلة تساوى التضحية بكل عزيز على الإنسان . حتى إذا جاءت الموجة الطاغية فى وقت ما ضد الإيمان كان هناك ثبات لدى المؤمنين ، وكان هناك عزم وتصميم على قبول التحدى . وثبات المؤمن فى إيمانه هو عامل نصره ، وبخاصة عند التحدى والطغيان ضد ما يؤمن به . فالحياة البشرية لا يدوم فيها وضع واحد ، لأمر واحد . وإنما الشىء — كما يقال — إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده ، فالطغيان سيتراخى ويحل التسامح محله يوما ما . والتحدى سيضعف ، ثم يزول فى وقت لاحق حتما . وهذا الثبات على الإيمان يخرج من المحنة أكثر ما يكون صلابة وقوة . والثابت على إيمانه قد ضحى فقط — فى فترة الأزمة والشدة — عما يتعلق ببدنه ، إن عذب أو استشهد ، أو بماله إن صودر وأخذ منه ، أو بذله هو عن رضا نفسى فى الدفاع عن دين الله .

• وجزاء المؤمن الثابت على إيمانه إذن ليس فى الدنيا — أى لا يرتبط

---

(١) الحجرات : ١٥

بمتعه دنيوية — بل جزاؤه عند الله فى آخرته . أما الدنيا فقد تكون لكافر أكثر مما هى لمؤمن : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا .

« ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكورا كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا .

« انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا »[1] .

وسعى المؤمن للآخرة داخل فيه ترقب الأزمات ومواجهة الطغيان .

وهجرة المؤمن بدين الله ، فيها ابتلاء من الله لا يقل عن الابتلاء بالمعيشة فى المحن والشدائد ذاتها .

أما محترفو الإيمان والإعلان عنه فلهم بريق يلمع ، ويغرى : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم »[2] .

ولكن فى واقع الأمر هم أعداء الإيمان : « كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو فاحذرهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون »[3] . أى هم أشباح لا خير فيهم كالأخشاب المسندة إلى الحائط التى لا تؤدى وظيفتها ، ويمتلك الجبن نفوسهم فيظنون من الخوف أنهم المقصودون عند كل حركة تقع فى محيط المجتمع .

محك الإيمان الصادق إذن هو التطبيق العملى له فى الحياة ، بالتضحية وإيثار الوقوف بجانب دين الله، على المال والنفس، والأجر عليه عند الله وحده.

---

(١) الإسراء : ١٨ — ٢١

(٢) المنافقون : ٤

(٣) المنافقون : ٤

والمحترف بالإيمان منافق مخادع ، يغري بمنظره وحديثه ، وينفر بمخبره وجبنه وهلعه . والحاكم الموفق هو الذى لا يخـدع بلحن القول ولا يغتر بظاهر الأمور .

***

• التجاء الإنسان إلى الله عند المحنة . والتولى عنه عند النعمة :

تلك طبيعة الإنسان : يطغى عندما يستغنى . . ويذل عندما يحتاج . « كلا إن الانسان ليطغى . . أن رآه استغنى »[1] .

وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه (أى عائدين إليه بالتوبة) ثم إذا أذاقهم منه رحمة (أى نقلهم من جديد من ضرهم وفقرهم ومرضهم إلى الرخاء والصحة) إذا فريق منهم بربهم يشركون (أى ينكرون وحدانيته ويسلكون معه مسالك الوثنيين الماديين فى العبادة)[2] . تلك خصيصة الطبيعة الإنسانية لا يخرج عنها إلا مؤمن بالله ، يعرفه فى الضراء والسراء ولا يشرك بربه أحدا .

إن المغرور بالأموال وبالإمكانيات العديدة وبالأولاد والقوة المادية وبالجاه والسلطة والنفوذ يجعل من الإنسان إلها . . أو شبه إله . . يجعل منه غير خاضع وغير عابد إلا لإمكانياته وقوته المادية وحدها ، وهنا يستعلى على الآخرين ، ويرى أن مسلكه فى الحياة هو الطريق الصحيح الذى يجب أن يتبع ، وإن خالف هداية الله التى راعى فيها اعتبار الناس جميعاً لا فرق بين كبير وصغير . . وقوى وضعيف .

وبقدر ما يرتفع المغرور بقدرته وطاقاته التى تمثل نعم الله عليه . . وبقدر

---

(١) العلق : ٦/٧

(٢) الروم : ٣٣

ما يستعلى على الناس بسلطانه وجاهه : بقدر ما يسقط ويذل ، ويعلن عن حاجته ومذلته . . وبقدر ماينزوى فى ركن المحنة والشدائد يدعو الله ليخرجه من محنته وشدته . فإذا رفع الله عنه المحنة لا يمنعه من الطغيان من جديد إلا إيمانه بالله ، إن آمن به .

وقد ا : تدعو رسالة الله الناس أولا إلى الإيمان بشىء واحد : وهو أن النعم التى هم فيها هى من الله وحده : «وما بكم من نعمة فمن الله» فإذا استقر فى نفس الإنسان : أن المال ، والصحة ، والجاه ، والسلطة ، والقدرة هى أمور ليست ذاتية ، أى ليست لذات الإنسان ، وإنما من فضل الله على الإنسان : كان موقفه منها موقف المعترف بهذا الفضل، وكان تصرفه فيها طبقا لما تنصح به هذه الرسالة . وهى لا تنصح إلا بالاستقامة وعدم الغرور والطغيان، أى هى لا تنصح إلا بتوجيهها لصالح الناس جميعاً ، وليس للاعتداء أو لظلم أحد بها .

أما طبيعة الإنسان فى بعدها عن هذا الإيمان فكما وصفتها بقية الآية فى قول الله تعالى :

«ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون (أى ترفعون أصواتكم بالنداء والشكوى).

«ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون (إذ أنهم يسيئون من جديد فى موقفهم من النعم التى عادت إليهم بفضل الله ورفعه الضر عنهم)[1] .

والإيمان بالله إذن لا تعود منفعته على الله . فهو الغنى وفوق المنافع فى حياة الإنسان . وإنما منفعته تعود على المؤمن وعلى مجتمع المؤمنين بالله أولا وأخيراً : تعود على المؤمن لأنه يتقى به الطغيان والمذلة معاً . . طغيان المغرور

---

(١) النحل : ٥٣/٥٤

عنـد القوة ، ومذلة المهين عندما تزول أسباب صلفه وكبريائه . وتعود على المجتمع لأنه يجنبه عوامل السقوط والتغيير ، ويبقى على تماسكه وقوته ، التي تقوم على الاعتبار البشرى وحده بين الأفراد جميعاً .

نعم الله كثيرة . وحسن استخدامها أدعى لبقائها . وسوء استعمالها يؤدى إلى الغرور فالسقوط فى هاوية الحسرة والندم . وهداية الله هى الطريق للموقف السليم إزاءها .

***

• المستضعفون فى الأرض يؤاخذون على استسلامهم للطغيان :

الطغيان لا يكون عادة إلا فى مجتمع مادى يشرك بالله أو يعبد غير الله من الأوثان المادية . والطغيان ظاهرة تلازم الحرص على الزعامة فى المجتمع ، والغرور بالقوة المادية : قوة المال ، أو العصبية فى القربى أو فى ترابط المنفعة .

والمجتمع الذى يقـــوم فيه الطغيان ينقسم عادة إلى مجموعتين : مجموعة المستكبرين ، أو المستعلين ، ومجموعة المستضعفين ، أو التابعين ، ومجموعة المستضعفين تحاول أن تخلى سبيل نفسها من مقاومة الطغيان ، أو من أنها تابعة للمستكبرين وهم الزعماء فى المجتمع ، بأنها مكرهة أو مغلوبة على أمرها .

وكذلك شأنها فى التبرير إذا مادعيت إلى السلام وإلى الروابط الإنسانية فى العلاقات بين الأفراد ، وطرح التبعية إلى الطغيان وعدم السير فى طريق الطغاة المستعلين : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم (والذين ظلموا أنفسهم هنا عندما تحضر الملائكة وفاتهم هم الذين قبلوا طريق المستكبرين من زعماء المجتمع ، وهم الذين كفروا بالله واليوم الآخر ، حرصا على زعامتهم وبقائهم أصحاب كلمة) قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض (أى عندما تسأل الملائكة هؤلاء المستضعفين عن السبب الذى من أجله

اتبعوا زعماءهم : فى الكفر والإعراض عن رسالة الله : يجيبون بأنهم كانوا مستضعفين ولا حول ولا قوة لهم فى مواجهة قوة الطغيان السائدة بينهم) . وهذه الإجابة لاتبرئهم عن المسئولية الشخصية . إذ كان أمامهم طريق آخر مفتوح ، وهو طريق الهجرة إلى الخارج . . كان من واجبهم نحو أنفسهم أن يؤمنوا بالله وبرسالته عندما نعرض عليهم، وأن يعرضوا عن تهديد زعمائهم ثم ينقذوا أنفسهم ولو لفترة مؤقتة بالهجرة إلى غير وطنهم : «قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟» .. ولذا كان رد الملائكة عليهم منكرين عليهم تبريرهم : أن أرض الله واسعة ، وكان يمكن أن تهاجروا فيها وأن تختفوا من مكان إلى مكان ولذا كان العقاب وارداً لا محالة ، وكان المصير السيء إلى جهنم حتما : « فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً »[1] . . فالمستضعفون بقبولهم الضعف والاستكانة للزعماء الطغاة فرطوا فى حق أنفسهم، وأعطوا الفرصة للمستكبرين فى أن تطول قيادتهم ، وبالتالى يطول ظلمهم وطغيانهم .

* * *

والهجرة كانت البديل عن قبول الضعف ورفض دعوة الإنسانية التى أتت بها رسالة الله . فلم يكن هناك إذن اضطرار لقبول التبعية . فضلا عن أن الهجرة كملجأ للخلاص من الظلم والطغيان والابتعاد عن مصدره فإنها تتيح الفرصة للمهاجر فى الحصول على الرزق ، وربما فى ظروف سهلة ميسرة : « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا ، وسعة »[2] . .

---

(١) النساء : ٩٧

(٢) النساء : ١٠٠

وهكذا « الحرية » التى كرم بها الله الإنسان لا ينبغى أن يقيدها ظلم ظالم ولا طغيان طاغ . وإنما يجب ممارستها فى كل الأوضاع : فى الشدة ، والرخاء . وإذا كان الله وهو الخالق الرازق لم يربط رزقه للناس بإيمان وبكفر به فليست هناك فى الوجود قوة تخيف الإنسان وترهبه بسبب الإيمان .

إن الإنسان هو الذى يرسم لنفسه شبح الخوف فى الحياة . فالظالم أو الطاغى قد يكون فى نفسه أكثر جبنا وضعفاً . وطالما الله هو الوكيل المؤمن فنعم السند ، وهو حصن الأمان .

وهكذا المستضعفون فى المجتمع ملومون ومسئولون أمام الله عن قبولهم الضعف والتبعية لظلم زعمائهم وطغيانهم فى مجتمعهم . إذ ليس المطلوب منهم أن يقاوموا حتما ، وجها لوجه ، وإنما بإمكانهم لتفادى الطغيان أن يهاجروا بإيمانهم فى أرض الله وهى رحبة ، وفيها الوقاية من السوء .

***

• الله يمهل — ولا يهمل:

نقرأ قول الله تعالى ، « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون »(١) .. فنقف من هذه الآية الكريمة على أن الله جلت قدرته لا يهمل شأن الظالمين إذا لم يجازهم فوراً . والظالمون هنا هم أولئكم الذين أعرضوا عن رسالة الله وكفروا بها .. هم أولئكم الأفراد الذين ظلموا أنفسهم فى الدرجة الأولى ، بعدم اتباعهم لهداية الله ، فضلوا وأضلوا غيرهم . وإذا كان الله لا يهمل شأنهم ولا يغفل عن جرمهم ، فإنه فقط يؤخر عقابهم إلى يوم الجزاء العام : « إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار »(٢) .. فيعطيهم الفرصة فى بقية حياتهم

---

(١) إبراهيم : ٤٢ (٢) إبراهيم : ٣٠

الدنيويه ليراجعوا ظلم أنفسهم بعدم سلوكهم الطريق المستقيم ، وهو طريق الهداية الإلهية . فإذا استمروا فى غيهم وضلالهم وفوتوا فرصة المراجعة فى حياتهم ، زادوا من ظلم أنفسهم ، وازدادوا من أجل ذلك إثما ، وتضاعف جزاؤهم : « ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين »(١) .. أى لا يظن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والإعراض عن رسالة الله : أن إرجاء جزائهم إلى يوم الآخرة جاء نتيجة الانصراف عن أمرهم ، وغض النظر عن حسابهم ، وفى ذلك عندئذ مصلحة لهم ؟ . وإنما يجب أن يعلموا : أن هذا الإرجاء إن تجاوزه ، وهم فى غيهم ، ولم يفيدوا منه فى مراجعة وضعهم من رسالة الله ، فإنه يكون لهم مصدر مضاعفة لجريمتهم ، وبالتالى لجزائهم .

فالله سبحانه الذى يشأ أن يجعل نعمته على الناس مرتبطة بالإيمان به . بل هو يعطى الكافر والمؤمن على السواء . وقد يعطى الكافر منها أكثر مما يعطى المؤمن : « كلا نمد ، هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً ، انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض »(٢) . . والله سبحانه الذى ترك للإنسان حريته ومشيئته فى أن يقبل الإيمان به أو يرفضه : « وقل : الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر »(٣) . . هو ذاته : المولى جل جلاله الذى شاء رحمة منه للإنسان إذا تردى فى هاوية الضلال ووقع تحت تأثير شهوته وهواه فكفر بالله وبنعمته عليه : أن يعطيه الفرصة مرة أخرى ليخرج مما تردى فيه ، فلم يجازه فوراً على ترديه وعلى ضلاله ، وأرجأ محاسبته إلى اليوم الذى لا يتأخر عنه حساب ، وهو يوم الجزاء .

---

(١) آل عمران : ١٧٨
(٢) الإسراء : ٢٠/٢١
(٣) الكهف : ٢٩

ومما ينسجم مع منطق الإنسان : أن الظالم لنفسه بالكفر بالله والإعراض عن رسالته ، إذا أضاع هذه الفرصة — وهى فرصة إرجاء عقابه من الله — واستمر فى إعراضه فإنه يكون قد جلب على نفسه مضاعفة الإثم والعذاب معاً. وعندئذ لم يكن إرجاء عقابه فى مصلحته : « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين » .

***

هذا نوع من الظالمين . ولكن هناك ظالمون آخرون . وهم الذين تجاوز ظلمهم حدود أنفسهم ، وامتد طغيانهم واعتداؤهم على غيرهم فى مجتمعهم، وأرهقوا من معهم فى المجتمع بالإجحاف فى المعاملة ، والتسلط عليهم ، بسبب الحرص على زعامتهم ، أو بسبب قوتهم فى المال أو العصبية .. هؤلاء الظالمون لا يرجىء الله جزاءهم إلى يوم الجزاء العام . وإنما يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، ويقوض زعامتهم لتحل محلها زعامة تؤمن به . والتاريخ يتحدث مثلا عن زعماء ثمود إذ منعوا الأكثرية الساحقة من أتباعهم : أن يشاركوهم فى الماء والمراعى . فأرسل الله لهم رسولهم صالح يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وإلى اتباع العدل بينهم وبين أتباعهم فيما هو مباح للجميع ، وهو الماء والمرعى . وترك ناقة له ، ورجا أن يكون لها نصيب معلوم مما هو مباح للكل ، كاختبار لإيمانهم أو لكفرهم برسالته : « ويا قوم هذه ناقة الله (أى ليست مملوكة لأحد) لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء ، فيأخذكم عذاب قريب (أى عذاب لا يؤخر إلى يوم الجزاء) . فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب . فلما جاء أمرنا (أى بإهلاك قوم ثمود) نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ، ومن خزى يومئذ ، إن ربك لهو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا (وهم الزعماء فى ثمود أبوا أن يمارسوا

العدل بينهم وبين آتباعهم فى الماء والمرعى) الصيحة (وهى الزلزال) فأصبحوا فى ديارهم جاثمين : كأن لم يغنوا فيها (كأن لم يوجدوا هناك إطلاقا) ألا إن ثمود كفروا ربهم ، ألا بعدا لثمود »[1] .. وإذا كانت ثمود مجتمعاً زراعيا تلاعب فيه الزعماء بنعمة الله فى الزراعة والحيوان فهناك مجتمع «مدين» كان مجتمعاً رأسماليا . استغل فيه المال أصحاب الزعامة وتلاعبوا بحرية الملكية فى المال وأباحوا لأنفسهم فى معاملة غيرهم ما يعد ظلما لهم وافتئاتا على حقهم فى الحياة فجاء رسولهم شعيب يدعوهم إلى العدل فى المعاملات المالية والتجارية، بجانب دعوته لهم إلى وحدة الألوهية ، فعابوا عليه دعوته واستهزأوا به ، فتوعد الله عليهم ديارهم كأن لم يغنوا بالأمس فيها : « وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله . ما لكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إنى أراكم بخير (أى من غير نقص فى المكيال والميزان . فأنتم أصحاب ثراء) وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط »[2] فكان جوابهم : « قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء (أى أننا أحرار فى أموالنا نتصرف فيها كما نشاء) »[3] .. فلهم أن ينقصوا فى الكيل والميزان. وإن أضر المتعاملين معهم ، طالما يجلب ذلك عليهم وفرة فى الربح . وكان جزاء الله لأهل مدين جزاء فوريا للحيلولة دون استمرار الظلم بسبب الطغيان بالمال: « ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود »[4] . . وهكذا الظلم العام لا يرجىء الله جزاءه إلى يوم الجزاء .

* * *

(١) هود : ٦٥ — ٦٨

(٢) هود: ٨٤

(٣) هود : ٨٧

(٤) هود : ٩٤ — ٩٥

الفصل الثاني

طابع المجتمع الإسلامي

- دعوة الإسلام هي دعوة إلى التحول عن الجاهلية والمادية
- المجتمع الإسلامي هو مجتمع الروابط الإنسانية
- المساواة في الاعتبار البشري مبدأ أساسي
- رسالة الله قد تعد بمتعة الدنيا
- دين الله يسوي بين قيمة العمل ـ وأداء العبادات
- دين الله يمقت القول الكثير ـ والعمل القليل
- اتباع دين الله لا يحمل المتبع له على أن يمتن : بإيمانه
- المشاركة في الايمان هي وحدها التي تؤمّن الثقة
- التأني في قبول أخبار الأعداء سمة للمؤمن
- إشاعات السوء يجب أن تقابل بالحذر ثم بعدم تناقلها
- الاجتماع سراً بين المؤمنين يجب أن يستهدف البر والتقوى
- من ليس ولاؤه للمجتمع الذي يعيش فيه ، لا يسوّى في الحقوق بأفراده
- لا يدفع غضب الأثرياء من أصحاب الحاجة في المجتمع: إلى امساك العطاء عنهم
- مشقة ابتلاء المؤمنين هي السبيل إلى الجزاء بالخير
- ابتلاء المؤمنين بالشدة أمر مقدور لله
- قد يكون الطريق الشاق هو السبيل إلى خير المجتمع
- الإيمان ـ والقتال
- من يدعو إلى الخير والصلاح فالله يقيه السوء
- اطمئنان المؤمن إلى ولاية ربه
- الحرية هي سبيل العدالة الاجتماعية
- أداء الصوم هو الطريق إلى الحرية

• **دعوة الإسلام،هي دعوة إلى التحول عن الجاهلية والمادية:**

يقول القرآن الكريم فى شأن بعثة المصطفى عليه الصلاة والسلام :

« لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » . . أى ليس أجنبياً عنهم فى لغتهم،ولا غريباً عن بيئتهم وأحوالهم التى يعيشونها .

يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين »[1] . وقد كانت مهمته عليه السلام بينهم : أن يبلغهم آيات الله فى كتابه وهو القرآن المجيد ، حسبما كانت توحى إليه . . وأن يدعوهم إلى تطهير أنفسهم من العادات التى كانت تسيطر عليهم ، والسبل التى كانوا يسلكونها فى حياتهم . . وأن يعلمهم أخيراً ما فى كتاب الله من مبادىء وحكم ، تقوم عليها أمتهم وتتميز بها جماعتهم . وهى مهمة ليست سهلة . لأن الناس على عهده عليه السلام كانوا فى ضلال مبين . . كانوا فى شرك ووثنية . . كانوا فى مادية وجاهلية.

فدعوة الرسول عليه السلام التى كانت قائمة على تبليغ الوحى الإلهى تنحصر فى أمرين رئيسيين :

الأمر الأول : تطهير الناس من شركهم ووثنيتهم وجاهليتهم . أو كما عبر القرآن : بأنه يزكيهم أى ينميهم فى مستوى الإنسانية ، وينقلهم فى هذا المستوى من مرحلة إلى مرحلة أخرى بعدها ، أبلغ فى هذا المستوى ، حتى يتمه . فإذا تم هذا المستوى أدت الدعوة غايتها الأولى : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى . ورضيت لكم الإسلام دينا »[2] .

---

(١) آل عمران: ١٦٤ .

(٢) المائدة : ٣ .

الأمر الثانى : نقل الناس من ضلال مبين وحيرة وتخبط إلى عهد حضارى إنسانى ، قوامه ما فى القرآن من مبادىء وحكم ، وهى مجموعة من المبادىء تكون نظاما اجتماعياً ، واقتصاديا ، وسياسياً ، وسلوكيا أخلاقياً ، يكفل لهم الترابط القوى ، وينقذهم من التمزق والفرقة التى تسود المجتمعات المادية عادة : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا »(١) .

* * *

والدعوة الإسلامية إذن هى دعوة إلى تحول اجتماعى ، يسبقه صباغة الفرد أو صبغته بصبغة الله . وهى دعوة كذلك إلى حضارة إنسانية تقودها الحكمة ، وتوصلها المبادىء العامة .

والتحول الاجتماعى القائم على صباغة الفرد معناه : أن المجتمع لا يسبق الأفراد ، وعلى قيادته أو واقعه عليهم التوجيه والصباغة . وإنما الاهتمام أولا فى هذا التحول بالأفراد . يعرض عليهم الإسلام فمن قوله فى حرية ومشيئة تامتين ، وفى غير خوف على رزق أو حياة ، التزم به وبعبادته . وممارسته عندئذ ممارسة ناشئة عن حرية لا يشوبها إكراه ما ، ولذا ما يؤديه من عبادات الصلاة والصوم ، والزكاة ، وإن كانت واجبات تؤدى ، إلا أن أداءه لها فيه تقرب إلى الله . ولا يتقرب إنسان ما بشىء إلى موجود ما إلا إذا كان ما يتقرب به أمراً مرغوبا فيه من الطرفين ، وهذه العبادات الثلاث كفيلة بأن تصبغ الفرد بصبغة الله . أى تحوله إلى لبنة مهذبة أو مشذبة فى بناء المجتمع . أى تجعله صالحاً وذا أهلية للترابط مع أمثاله . ومنه ومن أمثاله يتكون المجتمع الإسلامى ، فقيام المجتمع الإسلامى متأخر عن أفراده .

---

(١) آل عمران : ١٠٣

وأفراده منتخبون من ذواتهم . وهم أحرار فى اختيار أنفسهم له .

أما الحضارة الإنسانية التى تقودها حكمة القرآن وتوصلها مبادئه العامة فهى حضارة غير مادية ، هى حضارة قيم عليا فى حياة الإنسان .

والمؤمن برسالة المصطفى عليه السلام إيمانا خالصا بها،هو إنسان حضارى، على معنى أنه يطبق القيم العليا فى حياته وفى علاقته بالآخرين معه . هو إنسان سلام ، وعدل ، وإحسان . هو إنسان تعاون ، وتواد ، وتكافل . لا يعرف الحقد ، ولاسفك الدماء ، ولا اللاأخلاقية ، ولا الغدر ، والنفاق . إنه ترك بإيمانه : الضلال . . إلى الهداية ، والمادية . . إلى الروحية الإنسانية ، والجاهلية . . إلى الحكمة الإلهية . وأصحاب الحضارة التيكنولوجية العلمية قد يكونون متخلفين فى الحضارة الإنسانية التى قوامها الروابط الإنسانية .

***

● المجتمع الإسلامى مجتمع الملاك والعمال معاً:

نوعان من المجتمع المعاصر يصارع بعضهما بعضا اليوم،ويتربص أحدهما بالآخر:مجتمع أصحاب رءوس الأموال أو الملاك .. ومجتمع العمال أو البروتاليا.

أما مجتمع أصحاب رءوس الأموال،أو الملاك فهو المجتمع الذى يسلم قيادته وتوجيهه ، كما يسلم الرعاية وضروب المنفعة المختلفة فيه ، إلى من يملكون المال وحدهم . ومن ضروب المنفعة التى تؤول إليهم:العمل فى أموالهم ممن لا يملكون المال : فى مصانعهم . . فى مؤسساتهم المالية والتجارية . . فى مزارعهم .

فالملاك هم أرباب العمل ، والعمال أجراء عندهم . ومهما يكن من عدد العمال وكثرتهم فى المجتمع الرأسمالى فإن الكلمة فيه أخيراً لأصحاب رءوس الأموال : فى السياسة . . وفى التشريع . . وفى السلطة التنفيذية . والأمر فى هذا المجتمع لا يدور مع الكثرة العددية ، بل مع أصحاب السلطة والنفوذ .

وهم القلة التى تملك . ومن أجل ذلك كان مجتمعنا رأسماليا ، أو مجتمع ملاك.

وأما مجتمع العمال أو البروتاليا فهو المجتمع الذى تملك فيه الدولة رأس المال ، وتباشر فيه مهمة رب العمل : فى تحديد نوع العمل للعاملين وفى تحديد أجورهم .

ومجتمع العمال يقوم لينهى — كما يقال — ما يسمى بالصراع الطبقى ، وهو الصراع بين القلة صاحبة رأس المال وصاحبة النفوذ فى المجتمع، والكثرة من العمال الأجراء الذين يعملون فى أموال هذه القلة . وهو صراع يملك فيه أصحاب رءوس الأموال : تحديد الأجور وساعات العمل وزيادة الإنتاج ، بينما تطالب فيه الكثرة العاملة بتحسين أوضاعها الاجتماعية فى السكن ، والانتقال ، وضروب النشاط الاجتماعى ، ورعايتهم الصحية فى أداء العمل ، وبتوفير أنواع التعليم والمهارات لها ولأولادها .

والصراع بين أصحاب رءوس الأموال والعمال هو صراع قد تتحكم فيه الأنانية فى جانب أصحاب رءوس الأموال ، كما قد تتحكم فيه الميول التخريبية والنشاطات المغرضة التى يوحى بها الاستعمار الشيوعى للطبقة العاملة .

والفساد الذى يشيع فى المجتمع الرأسمالى إذن يعود إلى أنانية الملاك من جانب ، ونزعة الحقد والتخريب لدى العمال فيه من جانب آخر .

ومجتمع العمال إذ ينهى فى الشكل الصراع الطبقى لا يوفر للعمال ظروف الحياة الكريمة . وإنما يصبحون أرقاء لما يسمى بالدولة فى المجتمع . والدولة هى عصابة الحكم من رجال الحزب التى تتولى الوصاية على الحركة العمالية إلى أن يتحقق ما يسمى بالحكومة العمالية العالمية !! . ويصبح مجتمع العمال شكلا من أشكال الرق الجماعى ، لا تمارس فيه الحرية فى صورة ما . وبالأخص حرية الملك . . وحرية الرأى . . وحرية الانتقال . . وحرية العمل .

أما الإسلام فلا يرى صلاحية أى من نوعى النظام المعاصر فى المجتمع بالنسبة لكرامة الفرد وحسن ترابطه بمن معه فى المجتمع . لا يرى صلاحية النظام الرأسمالى لأن أنانية أصحاب رءوس الأموال أو الملاك فيه تحول دون أن تكون هناك سكن واستقرار ، ومودة ، ورحمة بينهم وبين الأجراء فى أموالهم وهم العمال . والسكن ، والمودة ، والرحمة هى الأهداف الرئيسية التى حددها القرآن للمجتمع البشرى فى قول الله تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ، ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »(١) . فالأنانية فى ملكية المال وفى منفعته تجعل هناك شحا فى رعاية الآخرين وهم العمال ، مما يملأ نفوس هؤلاء بالحقد والبغضاء ، وروح الانتقام والتخريب . كما أن النزوع إلى التخريب لدى العمال فى أموال أصحاب رءوس الأموال، تحت ضغط الإثارة الخارجية من جانب الشيوعية الدولية ، هو بمثابة حرب تقوض كل ما قد يعمل لإرساء العلاقات بين الملاك والعمال على أساس من الروحية الإنسانية ، التى تعلنها الآية الكريمة هنا .

ولا يرى الإسلام صلاحية نظام المجتمع العمالى التى تملك فيه الدولة رأس المال ، كما أنها هى التى تسخر العمال ، وبذلك تجمع بين الملكية ، وتوجيه العمل . بالإضافة إلى ما لها بحكم كونها الجهة الحاكمة من مباشرة التحكيم فيما يجد من خلافات بين أرباب العمل والعمال أنفسهم . لا يرى الإسلام صلاحية هذا النظام لآثاره السلبية على العمل وعلى العاملين معاً . فالعمل سيضعف ، إن فى كمه أو فى نوعه ، لأنه ليس له صاحب حقيقى يرعاه ويباشر

---

(١) الروم : ٢١

تنفيذه . والعمال سيجدون أنفسهم فى مجال يساقون فيه إلى العمل ، من غير أن تكون لهم رغبة حافزة نحوه . إما لعدم كفاية الأجور . . أو للتفرقة الواضحة بين عامل وآخر دون أن تكون هناك ميزة فى المهارة والكفاية والإنتاج للتميز على غيره .

وملكية المال للدولة — أو للشعب كما يقال — هى ملكية اعتبارية . وواقع الأمر أن المال عندئذ بدون مالك حقيقى ، وبالتالى بدون حراسة ورقابة ، والمجتمع الذى تملك فيه الدولة وحدها هو مجتمع بدون مالكين ، أو مجتمع عاملين فقط . وذلك ضد طبيعة الوجود . لأن الوجود فى طبيعته يقوم على « الزوجية » . أى على الشىء ومقابله . والنوع الإنسانى إذ وجد على أساس الذكورة والأنوثة معاً ، فإن قيام مجتمعه وصلاحية أمره يقوم على التقابل نفسه . . يقوم على وجود من يملك فيه المال ، ومن لا يملكه ، ولكن يعمل فيه .

وقول الله تعالى : « أهم يقسمون رحمة ربك؟

نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً ،

ورحمة ربك خير مما يجمعون »[1] . . يوضح أن تفاوت الناس فى ملكية المال يستهدف إلى تحقيق التكافل بينهم . وهو تكافل صاحب المال مع صاحب الطاقة على العمل . فقسمة الله لمعيشة الناس فى الحياة الدنيا اقتضت أن بعض الناس يملكون ، والبعض الآخر لا يملك منه ، ولكن لديه طاقة على العمل . فوجود المالك ووجود العامل معاً هو لتحقيق التزاوج والتماسك فى

---

(١) الزخرف : ٣٢

المجتمع . والمجتمع الإسلامى إذن ليس مجتمع ملاك فقط ، بمعنى أن تكون السيادة فيه لمالك المال وحده . وليس كذلك مجتمع عمال فقط بمعنى أن الدولة وحدها هى التى تملك المال ، لأن المال عندئذ يكون بغير مالك . ولذلك إذا كان المال أصلا مالكا لله فاستخلاف الإنسان عليه حدد حقيقة المباشر له .

ومع أن بعض أفراد المجتمع يملك المال حسب نظرة الإسلام ، فإن هذا البعض لا يطغى بالمال ولا تتحقق له سيادة نافذة فى المجتمع عن طريق ملكيته له وبذلك يختلف المجتمع الإسلامى عن المجتمع الرأسمالى . فالمال أصلا هو لله وحده ، ومالكه من الناس مستخلف عليه ، فى تنميته وفى إنفاقه ، طبقا لما جاء فى كتاب الله خاصا بتنمية المال وبإنفاقه معاً . فالله يبعد فى التنمية طريق: الربا . . وأكل أموال الناس بالباطل . كما يبعد فى الإنفاق التقتير، والبسط. واستخلاف المالك على ما يملك من مال هو فى واقع أمره ابتلاء من الله له ؛ أيسير المالك فى تنميته وإنفاقه طبقا لوصايا القرآن ، كتاب الله جل شأنه وصاحب المال على الحقيقة ؟ : « وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات (أى فى ملكية المال) ليبلوكم فيما آتاكم »(١) .

وفى الوقت نفسه ينظر الإسلام إلى المال على أن له وظيفة اجتماعية . وهى أن منفعته سواء لمن يملك ، ولمن لا يملك . إذ طالما أنه لله على الحقيقة ، والله للجميع، فمنفعته يجب كذلك أن تكون للجميع ، وإن وقع فى استخلاف البعض دون البعض الآخر : يقول الله تعالى : «والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق.

فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم ،

فهم فيه سواء ، أفبنعمة الله يجحدون »(٢) . .

---

(١) الانعام : ١٦٥

(٢) النحل . ٧١

وإذا كانت منفعة المال لمن يملك ولمن لا يملك على السواء، فالمالك كالعامل سواء بسواء. كلاهما له مصلحة فى المال، وكلاهما له مصلحة فى العمل فيه. فالمالك إن بدت له مصلحة فى العمل فى ماله، فالعامل له مصلحة حقيقة كذلك فى مال المالك، عدا أنه يؤجر على عمله فيه. وهى مصلحة المشاركة فى منفعته العامة. فهو على فرض أنه سيعجز عن العمل فمصلحة المشاركة فى منفعته باقية له، يأخذ منه ليعوض عن عجزه وعدم صلاحيته للعمل.

وعمارة الكون إذن — والمجتمع صورة من صوره — تقوم على المالك والعامل معاً. المالك يحرس ماله ويباشر تنميته. والعامل يعمل فيه ويؤجر على عمله. ولا تتم هذه العمارة بسيادة الملاك وحدهم عن طريق المال، ولا بملكية الدولة مع قطعان العمال التى تسوقهم إلى العمل سوقاً.

***

ولذا لا يقال: إن الإسلام يؤيد المباشرة الحرة فى المال. أى يؤيد الملكية الفردية التى هى أساس النظام الرأسمالى، طالما هو يبيح ملكية الأفراد للمال أو لإستخلافهم عليه. لأن معنى الاستخلاف على المال يفرق بين الملكية الفردية فى الإسلام، والملكية الفردية الأخرى فى النظام الرأسمالى. فالاستخلاف طريق مرسوم لمنع الطغيان عن طريق ملكية المال، ولتأدية وظيفة المال الاجتماعية عن طريق الزكاة. فالمستخلف ملتزم بالسير فى تحقيق العدالة الاجتماعية طبقاً لوصايا الإسلام. وأولى هذه الوصايا: تحقيق المنفعة العامة للمال للمالك ولغير المالك على السواء: «فهم فيه سواء». فضلا عن أن إنفاقه لا يجوز أن يكون فى عبث أو مفسدة، وأن إنماءه لا يجوز أن يكون عن طريق استغلال صاحب الحاجة إليه. وتحريم أكل أموال الناس بالباطل يعم كل ضروب العبث والفساد، بينما تحريم الربا فى المعاملات المالية يشمل صور الاستغلال لحاجة صاحب الحاجة. ويدخل فى هذه الصور:

استغلال العامل فى أجره وفى رعايته الاجتماعية والصحية ، لأنه صاحب حاجة إلى الأجر على العمل ، ورد القرآن على سؤال من يسأل عن المقدار الذى يجوز لمالك المال أن ينفقه فى قول الله تعالى : « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو »(١) . . يفيد أن المالك أو المستخلف على المال يأخذ من المال حاجته ، ويعطى العفو أو الزائد عن هذه الحاجة فى وجوه الإنفاق المشروع ، تحقيقاً للمنفعة العامة للمال .

ومع كون المجتمع الإسلامى مجتمع ملاك وعمال معاً فإنه ليس مجتمعاً طبقياً . لأن الملاك والعمال إخوة فى الإيمان ومتساوون فى الاعتبار البشرى . وإخوة بعضهم لبعض تحول لذلك دون قيام نزاع بينهم ، فضلا عما يسمى بالصراع الطبقى . ومساواة بعضهم لبعض فى الاعتبار البشرى من شأنها أن تمنع سخرية بعضهم من بعض واستخفاف القوى بالضعيف . وقد جاء الأمران فى قول الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون . يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم : الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون »(٢) .. فإذا تحول النزاع بين طائفتين من المؤمنين — ملاك وعمال . . حاكم ومحكومين — إلى قتال بينهما ، وجب تدخل المؤمنين بالقوة لإنهاء القتال ، ثم معالجة الأمر بينهما بعد ذلك على أساس من العدل : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين(٣) .

---

(١) البقرة ٢١٩ .
(٢) الحجرات : ١٠ / ١١
(٣) الحجرات : ٩

وهكذا : هناك ثلاثة نظم فى ملكية المال وإنمائه ، وإنفاقه ، وبالتالى هناك ثلاثة أنواع من المجتمعات :

أولا : الملكية الفردية المال ، والحرية فى إنمائه وإنفاقه . ومجتمع هذا النظام هو المجتمع الرأسمالى ، أو مجتمع الملاّك .

ثانياً : ملكية الدولة للمال ، وممارسة الدولة السيادة على الأفراد فى تحديد العمل والأجور . ومجتمع هذا النظام هو مجتمع العمال بدون مالكين للمال .

ثالثاً : الملكية الفردية للمال ، والالتزام فى إنفاقه وإنمائه بحدود الاستخلاف فيه وهذه الحدود تحول دون الطغيان به . ومجتمع هذا النظام هو مجتمع الملاك والعمال معاً ، أو المجتمع الإسلامى .

وهكذا : دخول الاستخلاف فى الملكية الفردية للمال هو الفيصل فى تميز المجتمع الإسلامى عن المجتمعين الآخرين : الرأسمالى . . والعمالى . . لأنه على أساس من الاستخلاف فى المال لا توصل الملكية الفردية إلى الصراع الطبقى . . وبالتالى إلى التحول إلى المجتمع العمالى . فالاستخلاف كتفويض من الله يضع المالك للمال أمام مجموعة من القيود أو المبادىء لا يحيد عنها : يضعه :

. أمام المنفعة العامة للمال الخاص ، فيشرك أصحاب الحاجة معه .

. وأمام عدم الاستغلال لصاحب الحاجة عند التنمية ، فيمتنع عن الربا ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وبالأخص أكل أموال الضعفاء .

. وأمام عدم العبث والتقييد فى الإنفاق على الذات أو على الآخرين ممن يجب الإنفاق عليهم .

وبهذه القيود أو المبادىء لاتكون الملكية الشخصية طريقاً إلى الطغيان بالمال والتدخل فى شئون الحكم وتوجيه سياسة المجتمع . بل تبقى طريق المباشرة النشطة للمال .

وبهذه القيود أو المبادىء كذلك لاتكون الملكية الشخصية منفذاً إلى تكديس الثروة ، ولا إلى الشح فى إنفاقها ، فمانع الزكاة مرتد ، ويقاتل على ردته وتقسيم الإرث ضرورة اجتماعية واقتصادية .

وبهذه القيود أو المبادىء أيضاً كما تكون المال حرمة عدم الاعتداء عليه بإتلافه ، أو تخريبه ، أو الامتناع عن العمل فى إنمائه . . تكون للعامل فيه حرمة الحق فى الأجر المجزى ، وفى ضروب الرعايات المختلفة . كإنسان يتساوى فى الاعتبار البشرى مع المالك سواء بسواء .

. . .

● المجتمع الإسلامى هو مجتمع الروابط الإنسانية :

طلب نوح عليه السلام من ربه أن يغفر لابنه وأن يشمله برحمته ، وعلل طلبه هذا بأنه من أهله ، فقال : ونادى نوح ربه فقال : « رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين »[1] . ولكن كان جواب الله له هو قوله تعالى : « قال يانوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح[2] . وفى هذا الجواب ينكر الله على نوح أن يكون ابنه فى عداد أهل نوح وجماعته ، إذ جماعته أو مجتمعه على الحنيفة يتكون من المؤمنين به وبرسالته وليس من أقربائه وذوى رحمه فى الدم والعلاقة الأسرية .

فالعلاقة فى مجتمع المؤمنين ليست علاقة الدم والقرابة وليست علاقة القبيلة والأسرة

---

(١) هود ، ٤٥ .

(٢) هود . ٤٦ ،

إذن وإنما هى علاقة الإيمان بالله والعمل الصالح. وبهذا يوجه الله رسوله نوحا إلى أن علاقة القرابة لا توضع موضوع الاعتبار إطلاقاً عند تقييم الروابط التى ترتبط بها الأفراد فيما بينهم فى مجتمع الرسالة، وأنه ينبغى للرسول — ولقائد مجتمع المؤمنين بعده — أن يهتم بأفراد المجتمع على أساس الإيمان بينهم ، وليس على أساس القرابة وصلة الدم الذى يجرى فى عروقهم .

وفى رسالة القرآن للرسول محمد عليه السلام طلب منه ومن المؤمنين به أن يلجأوا إلى هداية الله ويلوذوا بها دائماً فى ترابط بعضهم ببعض وأن يعتصموا بها عندما ينشدون القوة والتآخى والمحبة فيما بينهم . فيقول : « واعتصموا بحبل الله جميعاً (وحبل الله هو هدايته فى كتابه) ولا تفرقوا (أى لا تتوزعوا على أساس القبيلة والأسرة) واذكروا نعمة الله عليكم (الآن بعد الإيمان) إذ كنتم أعداء (بسبب القبلية التى كانت شائعة بينكم) فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها »(١) .

فحبل الله أو هدايته تنطوى على مبادىء توجيه الرسالة الإلهية للانسان. وهى مبادىء تدفعه إلى أن يكون ذا مستوى فاضل فى الإنسانية . . تحمل المؤمن بالله على أن يتحول من أنانية يعيش تحت تأثيرها وينكر غيره فى الوجود معه إلى أن يحس غيره كما يحس ذاته ويعيش لغيره كما يعيش لذاته ، أى تحمله على أن يكون إنسانا فى سلوكه وفى معاملاته للآخرين.

والدعوة إلى الاعتصام بهداية الله هى دعوته إلى النجاة من السقوط فى الفرقة ، وهى فرقة الخصومة بسبب الأنانية الغالبة. والسقوط فى الفرقة معناه

---

(١) آل عمران: ١٠٣

السقوط فى الضعف ، السقوط فى الشحناء والبغضاء ، السقوط فى القتال والحروب.

وإذا ذكرت الأنانية ذكر ما يقوم عليها من ترابط الأسرة ، والقبيلة ، والفرقة. وإذا ذكرت اللا أنانية أو هداية الله وحبله ذكرت الإنسانية وقيمها العليا التى تتمثل فى المحبة والأخوة وروح التواد والمعاونة .

والرسالة الإلهية إذن منذ أن عرفت على عهد أقدم الرسل وهو نوح إلى عهد رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام : تعنى بالروابط الإنسانية وحدها وتوجه المؤمن نحو إداركها والتحول فى الواقع إلى مستواها دون غيرها .

والدعوة إلى المجتمع الإسلامى دعوة فى واقع الأمر إلى المجتمع الإنسانى الذى ينبذ صفات الجاهلية المادية ويتحلى بالصفات الإنسانية . . هى دعوة إلى مجتمع يعطى أفراده من فائض إنسانيتهم إلى أصحاب الحاجة معهم فى مجتمعهم بدلا من مجتمع يستغل أفراده حاجة بعضهم بعضاً إلى البقاء على قيد الحياة . . هى دعوة إلى مجتمع يقول الله فى شأن أفراده : « ويطعمون الطعام على حبه : مسكيناً ، ويتيما ، وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا »[1] ، بدلا من ذلك المجتمع الذى بقى عند حد المادية والأنانية وكفر بالقيم الإنسانية وجاء وصفه فى قوله تعالى : « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا ، أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ، إن أنتم إلا فى ضلال مبين »[2] .

ليس هناك مجتمع دينى ، إنما هناك مجتمع إنسانى ، وليس هناك مجتمع غير دينى ، وإنما مجتمع أنانى أو مادى .

***

(١) الإنسان: ٨/٩

(٢) يس : ٤٧

ﺣ المساواة فى الاعتبار البشرى مبدأ أساسى :

توفير الاعتبار البشرى لكل إنسان من الآخرين معه فى مجتمعه : قضية أساسية فى الإسلام . فالإسلام لا يعرف تصنيفاً لطبقات فى المجتمع على أساس من الغنى والفقر ، أو الجاه والشرف ، أو نوع العمل الذى يباشره الإنسان . وإنما إذا ميز إنساناً عن إنسان فيزه عند الله بالمستوى الإنسانى فيه . على معنى أن صاحب المستوى الرفيع فى التهذيب والسلوك ، وأداء الواجب ، والمشاركة للآخرين فى عواطفهم ومعاوناتهم على سد حاجاتهم أقرب فى القبول عند الله ، من إنسان آخر هو أدنى منه فى هـذا المستوى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . ولـكن فى المجتمع يجب أن يتوافر الاعتبار البشرى للأفراد جميعاً على السواء . فلا يسخر فرد من فرد ، ولا ينتقص إنسان إنساناً آخر ، ولا يدعو إنسان إنساناً بما يكره أن يناديه به أحد . ولذا ينهى القرآن فى سورة الحجرات عن السخرية . . وعن اللمز وهو الانتقاص من قدر الإنسان . . وعن التنابز بالألقاب التى تنطوى على الاحتقار ، فى قول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ،

ولا تلمزوا أنفسكم (أى ينتقص أحدكم الآخر) ،

« ولا تنابزوا بالألقاب ،

« بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان (أى أن مباشرة السخرية ، واللمز ، والتنابز بالألقاب تـكاد تـكون خروجاً عن الإيمان . وليس هناك أقبح من العودة إلى الجاهلية والـكفر ، بعد الإيمان) .

« ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون »[1] .

ويقول الله سبحانه هذه الآية عقب قوله :

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما »[2] . . مما يشير إلى أنه قد يكون سبب القتال بين طائفتين من المؤمنين هو عدم توفر الاحترام بينهما فى رعاية الحقوق المماثلة لكل منهما . . ثم قوله بعد ذلك :

« إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون »[3] . . فالمجال مجال تصفية النفوس مما قد يكدر العلاقة بينها . وليس هناك ما يكدر النفس ويشحنها بالحقد بعضها ضد بعض ، من أن ينكر على بعضها الحق فى الحياة والكرامة الإنسانية ، بناء على تفرقة فى الاعتبار البشرى .

وفى مجال تصفية النفوس عرض القرآن للظاهرة التى قد تحدث ، وهى ظاهرة القتال بعد النزاع بين مجموعتين من الأفراد فى الأمة . واقترح علاجها على أساس من العدل المجرد : « فأصلحوا بينهما بالعدل ، وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين » . ثم بين الدافع لوجوب المصالحة على أساس العدل المجرد ، وهو أن العلاقة بين المجموعتين المتقاتلتين : علاقة إخوة فى الإيمان ، وإخوة فى الإنسانية : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » ثم حرم ما من شأنه أن يكون السبب فى المخاصمة والتقاتل بين فريقين من المؤمنين ، وهو أن تسخر مجموعة من المؤمنين بمجموعة أخرى من بينهم ، أن تؤذيها إيذاءاً نفسيا بالانتقاص من قيمتها أو بدعوتها وندائها إياها بما لا تحب أن تنادى به .

***

(١) الحجرات : ١١
(٢) الحجرات : ٩
(٣) الحجرات : ١٠

والمساواة فى الاعتبار البشرى فى نظر الإسلام إذن منهج فى الحياة بين المؤمنين جميعاً :

١ — لضمان الحقوق المماثلة لجميع الأفراد، فى الحياة والكرامة الإنسانية.

٢ — وسلوك بعيد كل البعد عن السخرية والانتقاص فى القيمة لأى فرد فى الأمة .

٣ — وإسراع فى تصفية النفوس عند التنازع والذهاب فيه إلى القتال ، على أساس من العدل المجرد ورد الحقوق المماثلة لمن اعتدى عليه فيها.

وهكذا : لا يعرف الإسلام طبقية ، ولا صراعا بين طبقات ، ولا يعرف حقداً كأساس لحل مشكل ، إنما يعرف الأخوة والمساواة فى الاعتبار والمماثلة بين الحقوق والواجبات .

***

• رسالة الدين لا تعارض متعة الدنيا :

نقرأ نداء نوح إلى ربه فى قوله تعالى :

« قال : رب إنى دعوت قومى ليلا ونهاراً . فلم يزدهم دعائى إلا فراراً ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا ، واستكبروا استكبارا .

ثم إنى دعوتهم جهاراً .

ثم إنى أعلنت لهم ، وأسررت لهم إسراراً . فقلت : استغفروا ربكم، إنه كان غفارا .

يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات، ويجعل لكم أنهارا »[1] .. نقرأ هذا النداء فنرى أن نوحا عليه السلام

---

(١) نوح : ٥ — ١٢

وعد قومه إن هم استجابوا لدعوته وآمنوا بالله وحده وطرحوا الشرك والوثنية المادية — بأن يغفر الله لهم ماديتهم وجاهليتهم . . وأن يرسل عليهم من السماء مطرا يحول أراضيهم إلى جنات ، ويشق فيها أنهارا وقنوات . وبذلك تزدهر ثروتهم الزراعية والحيوانية ، كما يكثر عددهم وينشأون على القوة والعزة فيكون لهم المدد المستمر من الأموال والشبان .

ونقرأ قوله فى سورة الأعراف — وهى السورة التى تقص تاريخ الرسالة الإلهية والرسل فى العهود والأجيال المختلفة :

« ولو أن أهل القرى (وأهل القرى هم المجتمعات السابقة التى آثرت البقاء على الجاهلية والشرك) آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض (وبركات السماء هى ماء الأمطار .. وبركات الأرض هى ما يخرج منها من زراعة ومعادن ومما ينشأ على ذلك من ثروة حيوانية وقوة بشرية فى كمها وكيفها) .

ولكن كذبوا (أى ولكن أهل هذه المجتمعات المادية السابقة آثروا البقاء على التكذيب لرسالة الله ، والحياة فى ظل الوثنية) فأخذناهم بما كانوا يكسبون (ومن أجل ذلك كان جزاؤهم هو الهلاك والاستئصال . وهو جزاء استحقوه هم بسبب موقفهم . وهو موقف المعارضة من رسالة الله والكفر بما جاء به الرسول »(١) .

ونتجاوز مجتمع نوح ومجتمعات الرسل بعده إلى مجتمع أهل الكتاب فى بنى إسرائيل فنجد قول الله تعالى فى مواجهتهم :

«ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم (أى لو أن

---

(١) الأعراف : ٥٦

أهل الكتاب طبقوا ما جاء لهم فى رسالة التوراة ، ثم ما جاء بعدها فى رسالة الإنجيل ، وكذلك ما أنزل إليهم من ربهم من كتاب الله وهو القرآن — وما جاء فى هذه الرسالات فى عمودها المختلفة لا يخرج عن مقاومة المادية وطرح الشرك والوثنية وحمل الإنسان على أن يسلك المسلك الإنسانى فى حياته — لو أنهم طبقوا هذه الرسالات حقاً فلم يحرفوا البعض وينكروا البعض الآخر) لأكلوا من فوقهم (وهو ما تجود به أمطار السماء) ومن تحت أرجلهم (وهو ما تخرجه الأرض التى يعيشون عليها) ،

أمة مقتصدة (أى لكن منهم فقط مجموعة معتدلة وعادلة) وكثير منهم ساء ما يعملون (وأما الكثرة الغالبة فهى تحرف وتنكر . ومن هنا لم يتم وعد الله لهم)[1] .

فى كل ما قرأناه لم تنكر رسالة الله إذن الاستمتاع بمتع الدنيا . بل العكس — كما رأينا — تعد بمتع هذه الحياة للإنسان جزاء لإيمانه ، مما يدل على حلها ويدل فى الوقت نفسه على أن السعى لتحصيلها مطلوب من الإنسان فى دنياه .

والشىء الذى تحذر منه الرسالة الإلهية هو الإسراف فى الاستمتاع بها فقط : « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد :
وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين »[2] .

* * *

• دين الله يسوى بين قيمة العمل . . وأداء العبادة :

الإسلام لا يعرف الانقطاع إلى العبادة . وإنما المؤمن برسالته كما

---

(١) المائدة : ٦٦

(٢) الأعراف : ٣١

يجب أن يؤدى العبادة من صلاة ، وصوم ، وزكاة ، تقربا إلى الله ، يجب عليه أن يسمى فى الأرض ابتغاء فضل الله وتحصيل رزقه . وقد كان عثمان ابن مظعون — وهو أخ من الرضاع للرسول عليه الصلاة والسلام — قد انقطع للعبادة فبعث إليه الرسول ، فجاءه ، فسأله : أرغبت يا عثمان عن سنتى ؟ قال : لا ، والله يا رسول الله . ولكن سنتك أطلب ؟ قال :« فإنى أنام ، وأصلى ، وأصوم ، وأفطر ، وأنكح النساء ، فاتق الله ياعثمان ، فإن لأهلك عليك حقا وإن لضيفك عليك حقا .. وإن لنفسك عليك حقا . فصم ، وأفطر ، وصل ، ونم .

فهذا الحديث يطلب من المؤمن ألا يتخلى ، من أجل العبادة ، عن الواجبات التى يجب أن يؤديها نحو نفسه ، وأهله ومن لهم حق عليه . إذ العبادة فى نظر الإسلام وإن كانت الغاية من خلق الجن ، والإنس . . من خلق الملائكة ، والناس جميعا على السواء ، لما جاء فى قول الله تعالى : «وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »(١) . . إلا أنها من جانب آخر عامل يعين العابد على أن يحقق فى ذاته خصائص الإنسان . وأهم هذه الخصائص : السعى فى سبيل الرزق . وإذ يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ، وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون»(٢) .. يوضح أن سعى الإنسان فى سبيل الرزق يقترن فى الاعتبار عند الله بالسعى إلى أداء صلاة الجمعة عندما يؤذن المؤذن لها .

ويوضح من جانب آخر أن الغاية من خلق الموجودات التى تختبر فى طاعة

(١) الذاريات : ٥٦ .

(٢) الجمعة : ٩ / ١٠

الله ، سواء منها المعهود الذى يعرف ويرى ، وغير المعهود الذى لا يعرف ولا يرى ، وهى العبادة ، على نحو ما يعبر قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . . يراد منها أن خلق الأجيال المتتابعة من البشر على الخصوص فى هذه الدنيا بعد آدم وحواء ، يستهدف منه الابتلاء فى طاعة الله والخشية منه ، أثر تبليغ الرسول لرسالة الله . ويستمر هذا الابتلاء إلى يوم أن تقوم الساعة . وهذا الابتلاء فى طاعة الله لا يعنى تواكل الإنسان وقعوده عن السعى فى سبيل فضل الله ورزقه . لأن الله سبحانه عندما تكفل بالرزق لبعض المخلوقات ، فى قوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها »[1] . ربط تكفله بالرزق بحركة المخلوق فى سعيه نحو تحصيله ، إذ يعبر بقوله : « وما من دابة فى الأرض » . . أى ما من مخلوق من شأن طبيعته الحركة : يتكفل الله له بالرزق ، عندما يتحرك فى الأرض ويدب عليها ، ويسعى فيها .

والإسلام إذن لا يعرف التواكل ، وإن كان يطلب التوكل على الله والاعتماد عليه عندما يعزم ويصمم على التنفيذ والعمل .

والإسلام أيضاً لا يعرف القدرية وهى السلبية وترقب ما يأتى به القدر ، وإن كان يطلب الإيمان بالقضاء والقدر ، دفعاً إلى عدم التهيب فى الحياة . فالإيمان بالقضاء والقدر ليسر على الإنسان المؤمن : أن يجتاز المشاق والصعاب بروح قوية لا تعرف الهزيمة والاستسلام ، طالما أن العمر واحد ، وأن أجل الإنسان مكتوب ، وطالما أن ما هو مقدر ليس منه مهرب .

والإيمان بالقضاء والقدر لا يدعو إذن إلى السلبية فى الحياة . بل على العكس يدعو إلى الإيجابية والعمل . والذين يروجون عن الإسلام ، أنه دين

(١) هود : ٦ .

تواكلى ، أو دين قدرى لا يستطيعون : أن يفهموا قول الله تعالى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض . وابتغوا من فضل الله » . . أى إذا انتهت صلاة الجمعة فانتشروا فى بقاع الأرض وفى سبلها ، قصداً لتحصيل رزق الله ، وهو ماله ، ونعمته ، وفضله ، فى التجارة ، أو المهنة أو الحرفة ، أو الزراعة والصناعة . ولا يستطيعون أن يفهموا قوله : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم »(١) . . فيرخص بالسعى فى سبيل الرزق ، أثناء أداء عبادة الحج .

إن قيمة العمل لاتقل شأناً عن عبادة الله . ذلك من مبادىء الله فى المجتمعات البشرية .

• • •

• دين الله يمقت القول الكثير — والعمل القليل .

من الناس — إذا كانوا يحملون طبيعة النفاق — يتحدثون كثيراً ، ولا يفعلون إلا القليل . ومن كثرة ما يقولون يخدعون غيرهم . ومن قلة ما يفعلون يحرجون هؤلاء أشد الحرج . وهم ليسوا مكلفين من أحد ولا من أنفسهم أن يتحدثوا عما لا يستطيعون أن يأتوا به . والعاقل يدرك : أنه الأولى به إذا كان لا يستطيع أن يفعل ، أو يشك فى أن يفعل ، ألا يذكر شيئاً ، وألا يشير من قريب أو بعيد إلى مالا يستطيعه .

والقرآن لكى يوضح : أن القول الكثير . . والعمل القليل ، أو أن الوعد بأمر . . ثم التخلى عنه ، له ضرر على المتحدث نفسه ، وضرر آخر على من يوجه الحديث إليهم ، ومن ثم فهو ممقوت عند الله ، جاء قول الله

---

(٢) البقرة : ١٩٨ .

تعالى : « ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ؟ . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون »(١) . وقد قيل إن هذه الآية نزلت فى شأن من وعدوا بالثبات فى القتال قبل موقعة « أحد » وعندما جاءت الموقعة ولاحت بوادر الهزيمة على الأعداء تخلوا عن مكانهم فى الميدان ، جرياً وراء جمع الغنائم ، ثم كانت الهزيمة من أجل ذلك للمؤمنين . ويؤيد هذا الرأى قول القرآن بعد ذلك : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً ، كأنهم بنيان مرصوص »(٢) . أى يريد من المقاتلين المؤمنين حقاً : أن يثبتوا فى القتال حتى لاتكون هناك ثغرة فى صفوفهم ، تخل بنظامهم ووضعهم فى القتال فى مواجهة أعدائهم كما وقع فى « أحد » .

وأيا كان السبب فى نزول الآية فإنها تنطوى على مبدأ عام أو ظاهرة إنسانية عامة خطيرة ، تشيع وتتكرر ، إذا لم يع الإنسان عاقبتها على المجتمع وعلى الذات كذلك ، ويأخذ نفسه بالدقة والتحرى فى القول . وهو مبدأ الميل إلى الحديث والاسترسال فى الوعد ، مع قلة الإنجاز أو مع عدمه .

وخطورة هذا الميل إلى التوسع فى الحديث والقول دون فعل ، على المجتمع ، وخصوصاً فى وقت الأزمات : أن الناس يترقبون من لحظة إلى أخرى الوفاء بما قيل لهم ، بعد أن تطلعوا إليه وعلقوا عليه الأمل فى حل مشكلة أو مشكلات لهم . ثم تمضى اللحظات وتتبخر الأقوال قولا بعد آخر ، دون أن يكون لها مدلول فى حياتهم .

ومن حكمة السياسة والقيادة فى التوجيه إبعاد جانب المبالغة فى الوصف

---

(١) الصف : ٢ / ٣ (٢) الصف : ٤

أو فى القول أو فى الوعد ، والتزام الحيطة فى الأحاديث عن الشئون الجادة التى تتصل بحياة الناس ومستقبلهم .

أما خطورة هذه الظاهرة على الذات فإن الخالف فى الوعد ، وعدم الإنجاز لما قيل وتردد فى الحديث يعود بأثر سلبى ينسب إليها . وهو الوصف بالكذب ، وبالنفاق أيضاً . وقد حذر الله رسوله الكريم من أن يدخل عليه وضع بعض المنافقين . وهم الذين يخدعون الناس بأقوالهم ووعودهم ، وهم فى حقيقة أمرهم أعداء ألداء لهم ، إذ يقول له : «ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما فى قلبه ، وهو ألد الخصام »(١).

وقد أوصى الله بنى إسرائيل ضمن ما أوصاهم : بأن يقولوا للناس حسناً . على معنى أن تكون لديهم دقة فى الحديث ، وحيطة فى الوعود ، وعدم الإسراف فى الأمل . ولم يتبعوا واحداً مما أوصاهم به فى قوله : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لاتعبدون إلا الله ، وبالوالدين إحساناً ، وذى القربى واليتامى والمساكين ، وقولوا للناس حسناً ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، ثم توليتم إلا قليلا منكم ، وأنتم معرضون »(٢) . ولذا كان جزاؤهم الخزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب .

. . .

• اتباع دين الله لا يحمل المتبع له على أن يمتن على أحد :

كثير من الذين يعلنون إيمانهم باتجاه حاكم فى حكمه ، أو بدعوة داع فى دعوته ، يبتغون من إعلانهم الإيمان باتجاه الحاكم : أن تكون لهم حظوة عند الحاكم أو الداعى ، ينالون عن طريقها منفعة مادية أو أدبية .

---

(١) البقرة ٢٠٤
(٢) البقرة ٨٣

لأن المؤمن عن اقتناع باتجاه معين فى الحياة ، أو بدعوة معينة تحدد مذهباً إصلاحياً فيها ، يكفيه أن يعيش مع ذات الاتجاه أو ذات الدعوة ، دون أن يحاول الاتصال بصاحب الاتجاه أو بصاحب الدعوة ، فضلا عن أن يمتن عليه بأنه من الأتباع والمؤمنين به .

وصاحب الاتجاه فى الحكم ، أو صاحب الدعوة الإصلاحية عليه أن يتعلم - كمبدأ من مبادىء السياسة التى ترسم له النجاح فيما يتجه أو يدعو إليه - أن المعلنين عن إيمانهم والمتقربين به إليه فضلا عن الممتنين به عليه ، هو أخف الإتباع وزناً بينهم ، وأقلهم تحملا وصبراً فى طريقه ، وأكثرهم حديثاً وقولا عنه دون أن يكون لعملهم فى سبيله مايدفع عنه عداوة العدو أو تربصه به .

إن الاقتناع الذاتى باتجاه حاكم فى الحكم ، أو بدعوة داع إلى الإصلاح يخلق المقتنع متعة يحس بنشوتها ، بحيث لاتترك عنده فراغاً نفسياً يحاول أن يشغله بالحصول على حظوة الحاكم أو الداعى ، أو بالتعبير عن منة عليه بالمشاركة فى الإيمان . ولكن الاحتراف بالإيمان هو الذى يدفع إلى الحظوة ليحصل عليها ، والمنة ليعبر عنها .

والمحترف بالإيمان أسوأ المتبعين له : فى سلوكه ، وفيما يحترف به . أما فى سلوكه فلأنه اختار أن تكون القيم التى يقوم عليها اتجاه الحكم وتتكون منها دعوة الإصلاح : سلعة يؤدى الاتجار بها إلى كسب مادى ومنفعة مادية . وأما فيما يحترف به فالاتجار بالإيمان بالمبدأ ليس خداعاً ولا مهانة فقط للمبادىء . وإنما ينطوى على تضليل للكثرة التى تطيع فى اندفاع وفى غير وعى ، من يبدو فى صورة المجرد عن الهوى فى نصحه وفى الحديث عما يؤمن به .

والرسول محمد عليه الصلاة والسلام كحاكم وكصاحب دعوة اجتماعية إصلاحية فى رسالة الله، قد رسم له القرآن الكريم إطار سياسته داخل المجتمع الإسلامى، وفى علاقته بالآخرين خارجه فيضع أمامه صورة من الصور التى تتكرر مع كل دعوة إصلاحية، وهى محاولة الابتزاز بين الكسب المادى عن طريق عرض الإيمان وإعلانه. فيقول له:

« يمنون عليك أن أسلموا،

قل لا تمنوا على إسلامكم،

بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان، إن كنتم صادقين »(١).

.. إن هؤلاء الذين يجيئون إليك ويمتنون عليك بأنهم آسلموا لا تقبل منهم منتهم، لأن الإيمان بالدعوة فى ذاته هو منفعة ذاتية لمن آمن بها. وهى أن المؤمن يتقى بإيمانه انحراف السلوك وأخطار المعاملات مع الآخرين.

فإذا كان هناك من يمتن على غيره فهو الله سبحانه هو الذى يمتن عليهم لأنه هدى هؤلاء .. إلى الإيمان، إن كانوا صادقين فيما أعلنوه وفيما ادعوه من قبولهم الإسلام دينا لهم.

وهكذا أولا: لا ينبغى أن يكون الإيمان بالدعوة الاجتماعية الإصلاحية: سلعة يحترف بها ابتزازى، عندما يدعو إليها.

ثانيا: إن الإيمان الصادق بمثل هذه الدعوة يعبر عن نفسه فى شعور المؤمن بأنه الممتن بتوفيق الله إياه إلى هذا الإيمان، لأنه المستفيد منه.

ثالثا: بهذا التحديد يبتعد النفاق عن مجال الإيمان أو يقل. والنفاق هو المرض الذى يذهب بالإيمان عندما يتمكن منه.

***

---

(١) الحجرات: ١٧

• المشاركة فى الإيمان هى وحدها التى تؤمّن الثقة :

هناك علاقة القربى فى السياسة . وهى علاقة تقوم على المصلحة الذاتية وعلى المنفعية . أى هى علاقة تنشأ بين مجموعة من الأفراد يتبنّون اتجاها فى سياسة المجتمع ، على أن يكون رائدهم أولا تحقيق المصلحة الذاتية ، من وراء وجودهم فى القيادة السياسية . والولاء فى هذه العلاقة يخدم منفعة شخصية ، قبل أن يخدم المصلحة العامة . والثقة فى هذا الولاء ثقة مرهونة بدوام المنفعة وبحجمها . فهى ثقة مؤقتة ومعرضة للتحول من طرف إلى نقيضه ، طالما تحكمها المنفعية .

وهناك علاقة القرابة فى الدم : وهى علاقة تقوم على العصبية . وشأنها شأن العلاقة السابقة فيما تستهدفه ، وفى طبيعة توقيتها بالمنفعة المتداولة . فالأقرباء فى الدم لا يتكتلون ، بعضهم مع بعض ، إلا إذا كانت هناك مصلحة واحدة تجمعهم . فإن كانت لهم مصالح متعددة فهم ينقسمون فيما بينهم حسب تعددها وحسب التعارض القائم بينها . ولذلك كانت الثقة فى ولاء الأقرباء ثقة موقوتة .

والنوع الثالث من العلاقات هو النوع الناشىء عن الإيمان بالله . على معنى أن تكون هناك مجموعة من الأفراد تقوم العلاقة بينهم على إيمان بالله وحده . وهذا النوع من العلاقات هو أفضلها ، وأكثرها استقراراً ، وأدخلها فى الثقة المتبادلة . وبالتالى أدومها . لأن الإيمان بالله يطلب التضحية من المؤمن : بالمال .. أو بالعصبية .. أو بالقوة . فهو على العكس من علاقة القربى فى السياسة ، أو القرابة فى الدم ، التى تستهدف كل منهما المنفعة الخاصة .

ولذا كان فى تكوين المجتمع الإسلامى لأول مرة على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام — وكذلك فى كل وقت — ينصح القرآن المؤمنين بأن يولوا الرعاية لقرابة الإيمان ، ويؤثروها على علاقة الدم . بل يحذر من إيثار هذه على تلك . لأن هذا الإيثار لا يخدم نمو المجتمع ولا استقراره فى سبيل أهدافه العليا .

يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم، وإخوانكم أولياء، إن استحبوا الكفر على الإيمان ».. أى لا تؤثروا بصداقتكم وعلاقة الولاء لديكم : أقاربكم من الآباء والإخوة ، لأنهم أقارب لكم فقط ، قبل أن يشاركوكم الإيمان بالله وحده . فإذا لم يشاركوكم الإيمان بالله ومددتم إليهم مع ذلك علاقة الصداقة والإخلاص فقد أسأتم إلى أنفسكم : « ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون »(١) . والإساءة إلى أنفسكم تأتى من اختلافكم معهم فى الهدف ، وفى السبيل إليه . فهدفكم أنتم تحقيق قيم عليا فى حياتكم الإنسانية وهى قيم الهداية الإلهية . بينما هدفهم هم تحصيل دنيا ومنافع أنانية. وسبيلكم هو سبيل الإنسان العادل المحسن . بينما سبيلهم هم سبيل الطاغى والمعتدى .

* * *

والمبدأ الذى يقرره القرآن هنا فى شأن تماسك المجتمع وحسن قيادته هو : أنه يجب أن تؤثر القيادة فيه بعلاقاتها الطيبة وبثقتها فى مباشرة الأمور ، أولئكم الذين يعطون من أنفسهم ومما يملكون من طاقات ، أكثر مما ينتظرون من مصالح فردية . . أن تؤثرهم على من يمتون لهم بصلات النسب والقرابة ، وليس لهم إلا هذه الصلات ، مع ما قد تنطوى عليه نفوسهم من عدم ايمان بأهداف المجتمع .

ومخالفة هذا المبدأ فى قيادة المجتمع وتوجيهه يعود بالضرر على أهدافه وعلى تحقيق الاستقرار فيه .

* * *

---

(١) التوبة ٢٣ .

• التأنى فى قبول الأنباء من الأعداء سمة للمؤمن :

إن الحرب النفسية التى يثيرها أعداء أى مجتمع فى وقتنا المعاصر ليست جديدة فى علاقات المجتمعات بعضها ببعض . وربما يكون الجديد فيها هو الأسلوب الذى تخرج فيه . ولكنها فى واقع أمرها : مناورة من العدو يستهدف بها إثارة القلق أو إحداث ارتباك ما فى شئون عدوه فى مجتمع آخر.

وقول القرآن الكريم : «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا» .. ينبه إلى الموقف الذى يجب أن يتخذه المؤمن عندما يحمل عدوهم — وهو الفاسق هنا — إليهم نبأ يثير عدم الطمأنينة بينهم . وهو موقف التريث والاختبار لما ينقل إليهم منه. كما ينبه هذا القول القرآنى إلى أن الحرب النفسية من السنن الاجتماعية التى تلازم الطبائع البشرية ، كحرب القتال فى الميدان سواء بسواء . وكلتاهما من الأمور الضرورية التى تقع فى علاقات المجتمعات.

فعلى عهد الرسول عليه السلام قد أشاع أعداء المجتمع الإسلامى فى فترة من الفترات بين المؤمنين أنباء من شأنها أن تثير الاضطراب أو على الأقل تثير عدم الطمأنينة بينهم . كما يحكى القرآن فى قول الله تعالى فى وصف المومنين الذين ثبتوا على إيمانهم ولم ينزعجوا للشائعات التى يثيرها أعداؤهم : «الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح (والقرح هو الجروح وآثار الآلام فى القتال) للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس (وهم المنافقون بينهم وهم أعداء فى واقع أمرهم) : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم (والمراد بالناس الثانية : الأعداء الظاهرون فى عداوتهم) فزادهم (أى هذا القول) إيمانا (أى على عكس ما استهدف المروجون) ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل »[1] .

---

(١) آل عمران : ١٧٢/١٧٣ .

فهنا أشاع المنافقون بين المؤمنين : أن أعداءهم من المشركين الماديين أعدوا عدتهم لقتالهم ، وجمعوا المحاربين بعتادهم وزادهم لنزالهم ، مناورة من هؤلاء الأعداء ليحدثوا الفزع والخوف بين المؤمنين ، وبالتالى ليرهبوا مواجهة أعدائهم ، ويؤثروا الاستسلام لهم على ما يجب من لقائهم فى ميدان القتال ، قبل اللقاء معهم فى مجال الحجة ودعوتهم إلى الهداية الإلهية .

وما جرى على عهد الرسول عليه السلام من شائعات الخوف والإرهاب عن طريق أعداء المؤمنين يجرى فى كل عهد ووقت بعد ذلك حتى يومنا هذا ، وجرى بين مجتمعاتنا الإسلامية والعربية فى الوقت الحاضر فى الشرق الأدنى فى السبعينات وما بعدها .

وموقف التأنى والتريث الذى يطلبه القرآن هنا مرهون بأن يكون صاحب النبأ أو المروج له من الفاسقين : « إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » والفاسق هو الفاجر فى عدائه لقيم المجتمع الإسلامى ومبادئه . . هو الخارج خروجا واضحا فيما يعتقد ، ضد هذا المجتمع وإن نافق وتخفَّى وراء الصداقة ، أو وراء إعلان الدعم والمساندة لمجتمع المسلمين .

وموقف التأنى الذى يطلبه القرآن إزاء أنباء الفاسقين ليس فقط للحفاظ على هدوء المجتمع وإعطاء الفرصة للكشف عن الأهداف الحقيقية وراء هذه الأنباء . وإنما كذلك لتجنب رد فعل لأنباء الفاسقين قد يتخذ وتكون له عواقب وخيمة على مجتمع المسلمين نفسه : « أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » . سواء أكان هذا القوم داخل المجتمع أو خارجه .

وهكذا الحيطة فى كشف الأنباء المغرضة ، والحيطة فى قبول صداقة بعض الناس وهم أعداء حقيقيون : عامل من عوامل الإبقاء على قوة المجتمع وتماسكه .

وعلى عدم وقوعه فى كوارث ، يدفع إليها التسرع فى القبول وفى رد الفعل، وعندئذ يكون الندم لوقت طويل .

***

• إشاعات السوء يجب أن تقابل بالحذر .. ثم بعدم تناقلها :

• يتعرض المجتمع — أى مجتمع — لمحاولات التفكك والتشكيك فى قيمه ، بعد أن يقوم ، ويبدو تساند بعضه لبعض . والمجتمع يتألف عادة أو يقوم على أساس هدف مشترك يؤمن به أفراده . ومحاولات التفكك تتجه إلى خلخلة هذا الهدف المشترك فى نفوس الأفراد بالتشكيك فى صلاحية القيادة وعدم اتخاذها أسوة حسنة ، وبادعاءات تشوه صورة القادة ، إن فى سلوكهم أو فى معاملة بعضهم لبعض .

وقد سجل القرآن قصة « الإفك » بالنسبة للسيدة عائشة رضى الله عنها زوجة الرسول عليه السلام وبنت أبى بكر رضى الله عنه . وهى قصة أراد بها أعداء المجتمع الإسلامى إذ ذاك على عهد الرسول عليه السلام محاولة تشويه سمعة كثيرين ممن لهم شأن فى قيادة المجتمع : وفى مقدمتهم : الرسول عليه السلام .. وأبو بكر رضى الله عنه .. وعائشة رضى الله عنها ، وبعض الصحابة الآخرين . وقصد القرآن من تسجيل هذه القصة : إرشاد المؤمنين إلى ما يجب عليهم عمله إزاء الشائعات المغرضة التى يحاول أعداؤهم ترويجها بينهم لتمزيق وحدتهم وصرفهم عن قيادتهم ، وبذلك يسقط مجتمعهم ، ولذا ينظر إلى هذه القصة على أنها خير لهم : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم »[١] .

(١) النور ١١ .

وما جاء فى القرآن من إرشاد إزاء إشاعات السوء هو الموقف الذى تقره الحكمة لتتغلب عليها ، والحيلولة دون أن يتحقق هدفها من التفكيك والتشكيك .

والموقف الذى يريده القرآن الكريم هنا المؤمنين فى مواجهة الشائعات المغرضة والمدمرة لا يريده للمؤمنين وحدهم على عهد الرسول عليه السلام . بل يريده للمؤمنين فى كل جيل وعهد . وهذا هو الحكمة فى نزول الوحى به واطلاع المؤمنين عليه .

والموقف الذى يمليه الوحى هنا إزاء تلك الشائعات يتلخص فى أمرين :

أولا : ثقة المؤمنين بأنفسهم ، وعدم اهتزازهم عند سماعها والوصول فوراً بالمنطق والدلائل الواقعية إلى تأكيد أنها كذب واضح قصد به تخريب العلاقات الحسنة بين المؤمنين : « لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا : هذا إفك مبين »(١) .

وبهذا الموقف تغلق النوافذ جميعها ضد آثارها السلبية على الروابط فى المجتمع : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا ، والآخرة ، لمسكم فيما أفضتم فيه (وهو ترديد قصة الإفك) عذاب عظيم (لأنه كان سيسىء حتما إلى العلاقات بين بعضكم بعضاً »(٢) .

---

(١) النور : ١٢

(٢) النور : ١٤

وثانياً : الوقوف بالشائعات عند حدها الضيق ، وعدم تناقلها من جديد على الألسنة وعدم الخوض فيها ، بإضافة أو بتفصيل . وبذلك تقبر دون أن تبعث من جديد : « إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا ، وهو عند الله عظيم ، ولولا إذ سمعتموه قلتم : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك ، هذا بهتان عظيم »[1].

وهذا الوقف المزدوج يؤكد القرآن أنه للمؤمنين أينما كانوا ، وفي أي وقت وجدوا : « يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً ، إن كنتم مؤمنين »[2] . إذ من لوازم الإيمان في أي عهد اتباع ما أمر به القرآن هنا وعدم العودة إلى ما وقع في نفوس المؤمنين يوم ذاك ، على عهد الرسول عليه السلام ، من : تزعزع الثقة بأنفسهم وتصور بعضهم صدق ما روى إذ ذاك . . ثم من ترويج هذا الذي روى كذبا ، بنقله من مجلس إلى آخر ، ومن شخص إلى شخص .

وهكذا من مبادىء الإيمان الصادق من أجل سلامة المجتمع : أن يكف المؤمنون عن تناقل الإشاعات الكاذبة من الأعداء التي تستهدف تحطيم وحدتهم ، والتشكيك في قيادتهم السليمة على أن يظنوا قبل ذلك الخير بأنفسهم ، وأن يستبعدوا بادىء ذي بدء ، وقوع هذه الشائعات وبالأخص في نطاق كلة طهر وصفاء ، وبعد عن الدنيا وما فيها من متع وإغراء .

***

- الاجتماع سراً بين المؤمنين ينبغي أن يكون على البر والتقوى:

- بعض النظم التي تمهد لحكم المجتمعات تدعوا إلى سرية الاجتماعات ،

(١) النور : ١٥/١٦

(٢) النور ١٧ :

ليدبر فيها الإستيلاء على السلطة ، أو ليتفق فيها على سفك الدماء للمعارضين. وإلى أن تستولى بعض هذه النظم على الحكم تباشر الاجتماعات والتجمعات فى سرية ، وتدور فيما يسمى : « تحت الأرض » . . . لتنفيذ كل ما هو غير إنسانى فى الخفاء ، بدعوى الوصول إلى ما هو إنسانى فى العلن .

والإسلام ينصح المؤمنين به إذا اجتمع بعضهم ببعض سراً ، أو آثر بعضهم الحديث مع بعض آخر فى غير علانية : بأن تكون السرية التى التزموها فى غير عدوان على أحد وفى غير معصية لهداية الله ، وفى غير معارضة القائمين بأمر هذه الهداية ، وأن تكون بالأحرى فى سبيل الخير .. والمصلحة العامة ، وفى سبيل تجنب العدوان والانحرافات ، وإذ يقول القرآن الكريم :

« يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم (أى تحدثتم سرّاً بعضكم لبعض) فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول (على نحو ما جاء فى كتاب الله) وتناجوا ، بالبر والتقوى »[1] . يقول ذلك لأنه يريد أن يجنب المؤمنين التآمر والانشغال بالمؤامرات والمكايد فى خلقها أو فى مقاومتها . إذ المجتمع الذى تروج فيه المؤامرات ولو بحكم الوهم هو مجتمع يعيش فى ظلام ، وفى خوف وقلق ، بعضه من بعض .

والمجتمع الذى يعيش فى خوف وقلق هو مجتمع غير منتج ، مجتمع غير مترابط . . مجتمع يترقب الغدر ، ويتربص به الهلاك .

ويعلل القرآن النهى عن التناجى فى غير المصلحة العامة بقوله : « إنما

---

(١) المجادلة : ٩

النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا ، وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . . أى أن الاجتماع السرى والحديث فيه فى خفاء إنما يكون عادة من وحى السوء وتدبير الهوى والشيطان . وذلك لا يكون لخير عام . إنما لإحداث القلق وعدم الاستقرار بين المؤمنين فى المجتمع . وعلى كل حال ما يصيب المؤمنين من ضرر أيا كان مصدره يصيبهم بإذن من الله .

وموقف المؤمنين إزاء التناجى والاجتماعات السرية هو ألا يقفوا عن العمل والسعى فى الحياة . . ألا يشغلوا بها ويجمدوا حركاتهم . وإنما عليهم الاستمرار فى العمل ، وأن يتوكلوا على الله . أى يكلوا إليه أمر المؤامرات السرية والمكايد . والتوكل على الله يكون بعد أن يفرغ المتوكلون جهدهم البشرى فى الحيطة من الأضرار ومقاومة الشر . إن عليهم أن يبحثوا أولا عن مصادر هذه المؤامرات ويفتشوا عن أنجع الوسائل للوقاية منها ، ثم بعد ذلك : يكلوا الأمر لله القوى القادر . فمهما بلغ الإنسان فى حيطته وتدبيره لوقاية نفسه من الشرور فإنه بعد ذلك فى حاجة إلى الله لمساندته فى الوقاية منها . إذ هو رب الجميع وصاحب التدبير كله فى الوجود .

وهكذا : وضع المجتمعات الإسلامية هو الوضع المفتوح الصريح . ينفر من المؤامرات والمكايد التى تدبر سرا ، والمؤمنون يجب أن يكونوا صرحاء فى إعلان رأيهم ، وألا يتناجو بالإثم والعدوان ، ومعصية كتاب الله .

وعليهم ألا يحزنوا إذا ما دبرت بعض الاجتماعات السرية الشريرة بينهم . بل يجب أن يتصدوا بالمقاومة والوقاية منها . فالضرر أى ضرر ، لا يلحقهم إلا بإرادة الله ، ومع تصديهم لمقاومتها والوقاية منها وبذل أقصى جهد لهم فى ذلك ، فعليهم أن يتوكلوا على الله ، ويستندوا إلى معاونته : « وإذ يمكر بك

الذين كفروا ليثبتوك ، أو يقتلوك ، أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين »(١) .

***

• من ليس ولاؤه للمجتمع الذى يعيش فيه لا يسوى فى الحقوق التى لأفراده :

يقول القرآن الكريم :

« يا أيها الذين آمنوا : إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ،

وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ،

إن الله عليم حكيم »(٢) .

والمشركون ليسوا عبدة الأصنام من الحجارة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فحسب، وإنما هم عبدة غير الله ـ إنسانا أو حجراً، أو حزبا ، أو دولة، أو مؤسسة ، أو هيئة ـ مع كفرهم باليوم الآخر والبعث فيه ، وإيمانهم بالدنيا والمحسوس وحده . هم الذين سماهم القرآن : (جاهليين) ، وتسميهم الفلسفة فى كل أطوارها بالماديين . ووصفهم هنا بأنهم «نجس» للتنفير منهم . وطالما هم يكفرون بالله واليوم الآخر فداخل نفوسهم ليس فيه صفاء ولا شفافية . فهو ظلام . والنجس عادة ينتمى إلى الظلام الذى يكرهه الإنسان ويخشاه .

وتطالب الآية المؤمنين هنا بألا يمكنوا هؤلاء الجاهليين أو الماديين من الاقتراب من المسجد الحرام ، بعد عام فتح مكة . أى تطالبهم بألا يمكنوهم من الكعبة والطواف حولها ، ولا من مشاعر الحج على العموم .

---

(١) الأنفال : ٣٠

(٢) التوبة : ٢٨

وقد كان الحج من أعرافهم وعاداتهم حتى فتح مكة . كان من الحقوق المتعارف عليها بينهم . وقد منعوا هم المؤمنين فى صلح الحديبية من أدائه فى عام هذا الصلح .

والأمر بمنع المشركين أو الماديين من أداء الحج ، أو من الاقتراب من الكعبة والطواف حولها ليس انتقاما منهم لما فعلوه هم إزاء المؤمنين فى صلح الحديبية . وإنما هو مبدأ عام كما يتناول الجاهليين على عهد الرسول عليه السلام الذين أساءوا إلى المؤمنين ، يتناول الجاهليين أو الماديين فى العهود اللاحقة لعهده إلى يوم البعث . وقصد منه : الاستخفاف بهم وتحذير المؤمنين من مخالطتهم ، وتوضيح منزلتهم بين الناس جميعاً . ومن يخالطهم كمن يخالط النجس سواء بسواء .

هؤلاء المشركون كان لهم حق الاقتراب من المسجد الحرام بمكة والطواف حول الكعبة قبل الفتح،وحرموا من هذا الحق بعده ، لأن ولاءهم لغير الله ، وعبادتهم لما سواه . وأول بيت لله على الأخص لا يقترب منه إلا من كان ولاؤه لله وحده .

وعلى نحو هؤلاء المشركين فى وجوب عدم مساواتهم بالمؤمنين فى حقوقهم التى كفلها لهم القرآن : من كان ولاؤهم فى المجتمعات الإسلامية المعاصرة لغير الله ، ولغير مجتمعهم ووطنهم من الماديين ، الذين ينكرون الله واليوم الآخر . فهم يعيشون مع المؤمنين فى مجتمعهم الحاضر ويتجاوزونهم بالولاء، كما يتجاوزون به مجتمعهم ووطنهم ، إلى أجنبى عنهم .

وإذا كانت سياسة القرآن إزاء الجاهليين أو الماديين بالنسبة لبيت الله فى مكة ، عدم تمكينهم منه ، وحرمانهم من حق هو للمؤمنين وحدهم الآن ، فإن السياسة الرشيدة للمجتمع الإسلامى المعاصر يجب أن تقوم على عدم تمكين

الخارجين بولائهم عن حدود أوطانهم إلى من يضمر العداء لها ، ولا يرى منهجه فى توجيه البشرية من سبيل إلا سفك الدماء وشحن النفوس بالكراهية والبغضاء . فلا يولى هؤلاء الأمور التى تتصل بالتوجيه ، ولا يمكنون من إضلال الناس باسم الرأى ، أو باسم آخر .

قد كان للمشركين حق الاقتراب من الكعبة ، فمنعهم الإسلام – بعد أن انتصر – هذا الحق . وبرر هذا المنع بأنهم مصدر رخيص لإيذاء المؤمنين، كالقذارة إذا ما تفشت بين الناس لا يسلم من ضررها إنسان .

وإن خشى المجتمع الاسلامى المعاصر فقراً أو شدة من جراء هذه السياسة الاسلامية فالله وحده صاحب الفضل والنعمة . وهو العليم بمصلحة الشعوب والمجتمعات ، والحكيم فيما يوصى به من وصايا للحفاظ على هذه المصلحة : « وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ، إن الله عليم حكيم ».

* * *

• غضب الأثرياء من أصحاب الحاجة فى المجتمع لا يدفع إلى إمساك العطاء عنهم :

فى نصح الله للإنسان يريد أن يجنبه « الانفعال » فى تصرفاته ويعوده على التريث والاتزان فيها ، وبالأخص فى علاقته بالآخرين معه فى مجتمعه . لأن الانفعال ظاهرة نفسية تخرج فيها النفس عن حد الاعتدال . فالإنسان وهو منفعل إذا فكر لا يأمن الخطأ فى تفكيره . وإذا حكم فكثيراً ما يجانبه الصواب . وإذا تصرف قد يقوده تصرفه إلى ما لا يحمد عقباه بالنسبة له ، أو بالنسبة للآخرين .

وانفعال الإنسان غالباً يكون بسبب الغير . وهنا يتجه نصح القرآن للإنسان

إذا ما انفعل وغضب بسبب الغير ، بألا يكون رد الفعل منه ضد مصلحة هذا الغير . بل يجب عليه أن يبعد الغضب فى رد الفعل،ويعزله تماما ، ويظل موضوعيا ، أى يفعل الشيء بما ينبغى أن يكون عليه .

وفى مجتمع المدينة على عهد نزول القرآن ضاق بعض الصحابة من ذوى اليسار والفضل فى المال ، بتصرفات بعض أقاربهم من ذوى الحاجة إلى عطائهم، من الذين شاركوهم فى الهجرة من مكة إلى المدينة . وتردد أصحاب هذا الفضل فى المال بينهم وبين أنفسهم بسبب هذا الضيق ، فى قطع عطائهم عن ذوى قرابتهم وهم مساكين فى حاجة إلى العطاء ،فجاء الوحى ينهى عن قطع العطاء ، ويطلب العفو والصفح عنهم فيما أساءوا به إليهم ، ونزل قوله تعالى : «ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة (أى لا يمتنع أصحاب الرزق الواسع منكم بحلف اليمين) أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا ، وليصفحوا »[1] .

وإذ ينهى القرآن هنا أن يكون لانفعال الغضب من أصحاب الحاجة أثر فى قطع عطاء الأغنياء عنهم ، فإنه يريد مصلحة الطرفين : يريد مصلحة الأغنياء فى ألا يكون هناك من أصحاب الحاجة حقد عليهم . . ويريد مصلحة المساكين فى استمرار مساعدة الأغنياء لهم على دفع حاجتهم . وبتحقيق مصلحة الطرفين يظل التماسك فى المجتمع ، وهو تماسك نفسى لا تؤثر فيه الفجوة بين الغنى والفقير فيه .

وفى الوقت ذاته يبقى المستوى الإنسانى فى العلاقات هو المستوى السائد ، وهو مستوى تحرص عليه الحكمة فى التصرف والبعد فيه عن الحمق أو الغضب .

---

(١) النور : ٢٢

وعلى شاكلة هذا التوجيه فى إبعاد الغضب والانفعال فى علاقة الأغنياء بأصحاب الحاجة يوصى القرآن بإبعاد الغضب والانفعال فى دائرة العدل بين من هم سبب الغضب ومصدر الانفعال فيقول :

« ولا يجرمنكم شنآن قوم (أى لا يكسبنكم ولا يحملنكم بغضاء قوم) على ألا تعدلوا (أى على عدم العدل بينهم) اعدلوا هو أقرب للتقوى »[١] .

والمبدأ القرآنى إذن هو ألا يصدر من مؤمن تصرف أو رد فعل إلا فى حدود المستوى الإنسانى .. إلا فى حدود ما تقره الحكمة والتريث فى التفكير . فالمؤمن يجب أن يكون صاحب إنسانية . وإيمانه يجب أن يكون عاملا إيجابيا فى تحويله من ذاتى إلى إنسانى . والانفعال ظاهرة فى تصرف الطفولة ، بينما الحكمة أساس فى تصرف الرشيد .

وهنا سياسة المجتمع يجب أن تتوطد على إبعاد الانفعال من مجالها ، أى يجب أن تكون الحكمة هى الرائدة . والحكمة ليست أكثر من الاتزان فى الرأى ، وفى التعبير والموضوعية فى الحجة .

***

• مشقة الابتلاء هي السبيل إلى الجزاء بالخير :

الإنسان عرضة للفقر والحرمان ، كما هو عرضة للعجز أو المرض. وليس من السهل أن يتحمل الفقر أو المرض . بل فى تحمل أى منهما مشقة ، ربما تدفع به إلى اليأس من الحياة ، أو شبه اليأس منها .

ولكن الإنسان المؤمن إذا نظر إلى الدنيا على أنها دار اختبار ، وأن الابتلاء فيها كما يكون بعدم الحصول على متعها، يكون أيضاً بنعمها من مال،

---

(١) المائدة : ٨

وجاه ، وأولاد... فإن نفسه عندئذ تتحمل الفقر أو المرض ، كالا تخدع بالنعم ولا تفتن بالأولاد .

ويعبر القرآن الكريم عن أن الابتلاء بالفقر أو بالمرض وبالأزمات يكاد يكون هو السبيل إلى نعم الآخرة ، فى قوله تعالى :

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة (يوجه الخطاب للمؤمنين ، والرسول معهم) ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ (أى لا تحسبوا أن طريق الجنة سهلا . بل هو محفوف بالمكاره .. بل هو الصبر على البأساء والضراء والأزمات التى تزلزل النفوس وتثير فيها التساؤل من شدة وقعها : متى تنتهى ويأتى نصر الله عليها أخيراً . ويستوى فى زلزلة النفوس عندئذ : نفوس الرسل أو نفوس المؤمنين بهم) ألا إن نصر الله قريب (ولكن مع شدة هذه الأزمات وتأثيرها على النفوس المؤمنة فإنها لا بد أن تنتهى إلى الفرج وإلى النصر . لأن الله وعد المؤمنين به حقا : بالنصر . وهو النصر على أهواء النفوس وشهوتها .: وعلى أعداء الإيمان .. وعلى الشدائد فى الحياة المادية).

والقرآن إذ يجعل الفقر أو المرض ، والأزمات عامة ، كقاعدة أساسية فى حياة الإنسان يبتلى بها ، ويختبر صبره وتحمله عن طريقها ، لا يحمله — كما قد يقال — على الرضا بحياة المترفين ، والسكوت عن عبثهم وإسرافهم فى الأموال ، مع حاجة المحتاج وحرمان الفقير ، وعدم تكسب العاجز — أى لا يحمله على قبولها . وإنما ليكون مطمئن النفس يوم يكون غنيا فيهوى من غناه إلى الفقر .. ويوم يكون صحيح البدن فتصيبه العلة . . ويوم يكون فى يسر فتحل به الأزمات القاسية .

وليس هناك من بين الناس من ليس عرضة لتقيض وضعه القائم ، بعد أن أصبح الموت لا مفر منه ، يأتى عقب حياة له تطول أو تقصر . فالمال يأتى ويذهب ، ثم يأتى ، وكذلك الصحة والمرض ، والعسر واليسر ، فإذا كان الإنسان مستعداً نفسياً لأن يستقبل الفقر كما استقبل الثراء من قبل.. ويستقبل المرض كما استقبل الصحة .. ويستقبل الموت كما استقبل الحياة ، فإنه يعيش غير مهتز وغير مضطرب .

والإنسان المطمئن والمستقر يمكنه أن يستأنف حياة جديدة فى يسر .. يمكنه أن يتغلب على الصعاب والمشاق .. يمكنه أن يعود إلى الوضع المقبول لديه .. يمكنه أن يكون ذا مال ، وذا صحة ، وصاحب رخاء .

وهكذا : الابتلاء بالفقر وبالمرض ، وبالأزمات ، والإيمان بذلك قانون الحياة الإنسانية ذاتها ، أو عامل تجديد فيها ، أو السبيل إلى السيطرة على الشدائد والمكاره فيها .

والقرآن لا يخدع المؤمنين يوم يدعوهم إلى الصبر والتحمل عند المكاره، ويضع أمامهم مبدأ الابتلاء بالشدائد والأزمات فى حياتهم الدنيوية ، وهو لم يجعل جزاء الآخرة لمن نجح فصبر وتحمل على المكاره الجزاء الأول والأخير للانسان . بل هناك بجانب الجزاء الأخروى جزاء آخر دنيوى ، وهو القدرة على التغلب على المصاعب وعدم الاستسلام إلى اليأس والقنوط من ثقلها على النفوس . ولذا : إنهاء الإنسان لحياته جريمة يرتكبها فى حق نفسه ، ويراها ، الإسلام، إفلاساً وضعفاً عند مواجهة الشدائد، كما يرى فيها هرباً من الابتلاء والإيمان به .. يراها كفراً ، أو شبه كفر .

***

• ابتلاء المؤمنين بالشدة أمر مقدور لله :

حتى لا يؤخذ المؤمن فى حياته بسبب إيمانه ، على غرة : يبدد القرآن الكريم تصوراً قد يرد بخاطر المؤمنين . وهو أن جهلا من أجيالهم قد يتجاوزه القدر فلا يتعرض للابتلاء بالشدة ، والضيق ، والقلق الذى قد يبلغ قمته . والقرآن بما يبدده هنا من تصور خاطىء يضع المؤمنين فى واقع الحياة، ويبعدهم عن دخول البرج العاجى . برج الأمل الواسع والخيال الفضفاض فى إعفاء الله إياهم ، كى تكون ممارستهم للحياة ممارسة عملية ليس فيها مفاجأة أو خيبة أمل .

ومن هنا كان من لوازم إيمان المؤمن من أن يدرب نفسه على إرادة الحرمان مما تشتهيه النفس . وقد جاءت عبادة الصوم لشهر رمضان كل عام لتعد نفس المؤمن بهذه الإرادة ، ولتذكره عند قدوم شهر الصوم : أن ليس من المفاجأة فى حياته أن يوضع فى أى وقت أمام حرمان يكره عليه ، وربما يكون أقسى من حرمان الصوم . ولكن استعداده النفسى لتقبل الحرمان الإرادى، وباجتيازه مرحلته وهو مطمئن هادىء ، ويستطيع أن يمر بما يكره عليه وهو غير ممزق النفس . . وهو غير يائس . . وهو صابر متوكل على الله .

ومثل هذا المؤمن يكون فى نفسه قوة ، ويزيد فى قوة الآخرين معه ، وقوته قوة نفسية ، قبل أن تكون قوة بدنية . وصلاحية أى إنسان للحياة هى بنفسه أولا .

القرآن الكريم يقول للمؤمنين :

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ،

مستهم البأساء، والضراء، وزلزلوا، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه: متى نصر الله »[١] .. أى أنكم إن ظننتم هذا الظن وهو أنكم بمنجاة - يوما ما - من الابتلاء والاختبار فى هذه الحياة الدنيا، بالشدائد والأزمات والقلق النفسى المريع الذى قد يبلغ أمره بكم: أن تتشككوا فى إنقاذ الله إياكم.. تكونون قد أخطأتم فى حق أنفسكم، وفى حق التاريخ معا . فابتلاء المؤمن بسبب إيمانه مبدأ إنسانى، واجتماعى يقع ويتكرر، كلما حلت بالإيمان أزمة الماديين والجاهليين الذين من شأنهم أن يصدوا عن سبيل الله ويبغونها عوجا .

وأما تشككم فى إنقاذ الله إياكم من المحن مهما كانت قسوتها فهو أمر خاطىء فى ذاته كذلك . لأن الله يفي بوعده بنصر المؤمنين ، إذا كانت محنهم بسبب إيمانهم ، وليست بسبب سوء تصرفهم : « ألا إن نصر الله قريب »[٢] .

***

فابتلاء المؤمنين بسبب إيمانهم بالله أمر مقدور فى علم الغيب . وهو مبدأ لا يتخلف: «ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه، حتى يميز الخبيث من الطيب »[٣] .. فمن طريق هذا الابتلاء ينعزل الخبيث وهو المنافق فى إيمانه عن الطيب الذى قد صدق فى إيمانه . وفصل المنافق فى الإيمان عن الصادق فيه، أمر تقتضيه ضرورة تماسك المؤمنين فى مجتمعهم .

وإذن: المؤمن وإن كان هدفا بسبب إيمانه لعنت الماديين أو الجاهليين، فإيمانه هدف كذلك لشهوته وهواه وأنانيته ونجاحه ضد شهوته وأنانيته هو طريق لنصر الله على عدوه .

(١) البقرة : ٢١٤ (٢) البقرة : ٢١٤ (٣) آل عمران : ١٧٩

وهكذا : نصر الله للمؤمن مرتبط بنصر المؤمن لإيمانه على هواه. فالله لا ينصر من يعلن الإيمان ، دون أن يكون صادقا فيه .

وهكذا : إذا كان الابتلاء للمؤمن بالشدة مقدوراً لله ، فذات المؤمن هى مصدر نصره أو هزيمته .

* * *

• قد يكون الطريق الشاق هو السبيل إلى خير المجتمع :

شاء الله أن يلتقى فى غزوة « بدر » : المؤمنون ، وهم قلة ضعاف ، بالمشركين وهم كثرة أقوياء . وربما لو شاء المؤمنون أنفسهم أمراً بشأن هذا الالتقاء لما اختاروا أن يلتقوا بأعدائهم ، والطرفان على نحو ما وصفنا غير متكافئين . وربما كانوا يؤثرون أن تكون لهم غنائم الحرب ، دون أن يباشروها .

مشيئة المؤمنين هنا تتصل بأنفسهم وبالمحافظة عليها مع الرغبة فى الحصول على منفعة مادية لا يواجهون فيها مشقة ولا عنتا . وهذا أمر قريب إلى النفوس البشرية فى رغباتها فى هذه الحياة وفى طبائعها . ومشيئة الله هنا ترتبط بمستقبل الرسالة التى آمنوا بها ، والتى التزموا الدعوة إليها ، وحماية هذه الدعوة ، فإذا انتصر المؤمنون فى هذا الالتقاء فى « بدر » — وسينتصرون بفضل إيمانهم وثباتهم عليه — فسيكون النصر فيه درساً قاسياً للمشركين فى علاقتهم مستقبلا بالمؤمنين . فالطرفان غير متكافئين ، ومع ذلك كان النصر للقلة القليلة المزيلة — ضد الكثرة القوية العاتية . وسيتردد المشركون كثيراً بعد ذلك فى مواجهة المؤمنين . وهذا التردد نفسه سوف يتيح الفرصة للدعوة إلى الإيمان بالرسالة بين المشركين أنفسهم وإلى تقبلها من كثير

منهم. لأن سر النصر كان فى قوة الإيمان ، وليس فى القوة المادية وحدها .

وكأن المؤمنين الآن وضعوا أمام اختبار صعب . . أمام رغبة النفوس وطبائعها وأمانيها . والطريق إلى ذلك لا يكلفهم مشقة ، وأمام الالتزام بمؤازرة الدعوة إلى دين الله وتثبيته وإحقاقه بينهم وبين أجيال البشرية القادمة ، وهذا يتطلب الكثير من الجهد والتضحية بالنفس .

وطالما شاء الله أن يسلك المؤمنون طريق الجهد والتضحية بالنفس فى لقاء الأعداء فى غزوة بدر ، فإن مشيئته هنا لا بد أن تنطوى على مصلحة أكبر ، تفوق بكثير تلك المنفعة المؤقتة التى تصبوا إليها رغبات النفوس ، دون أن تتحمل أى عبء نفسى فى سبيلها وراء الرغبة ذاتها .

وقد سجلت سورة الأنفال هذا الاختيار الصعب فى قوله تعالى :

« وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم (الطائفتان هما : إما الحصول من غير حرب على ما للمشركين من أموال التجارة والركائب فى قدومهم من الشام فى طريقهم إلى مكة .. وإما دخول الحرب معهم ، إن تحددت هذه الحرب من قبل المشركين معهم. فما خططه المؤمنون فى غزوة بدر هو أن يعترضوا طريق المشركين . عندئذ إما أن يترك المشركون أموالهم ويولوا الأدبار ، فتصبح للمؤمنين ، وإما أن يدخلوا فى حرب مع المؤمنين لدفعهم من طريقهم) وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم (أى وكنتم وأنتم أيها المؤمنون تودون الأمر السهل بالنسبة لكم وهو أن تحصلوا على أموال المشركين بدون قتال) ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين (بينما كانت إرادة الله تتمثل فى أن تدخلوا الحرب معهم وينصركم عليهم .

وعندئذ يثبت الدين ويستقر أمر أمتكم ، وينتهى أمر الكافرين بالنسبة لكم) [١] .

والكلمات التى تجلت فيها إرادة الله هى ما جاءت فى قوله تعالى فى السورة نفسها : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان » [٢] .

ومعاونة الله للمؤمنين هنا فى سبيل النصر هى ثبات المؤمنين على إيمانهم مع قلتهم وضعفهم بالنسبة لأعدائهم . وهذا الثبات نفسه هو الذى أثار الرعب فى قلوب الأعداء . ومتى احتل الرعب النفوس اختل توازنها ولزمتها الهزيمة حتما .

وحياة الأمم والشعوب — كحياة الأفراد — تتعرض لمشاكل وأزمات ولكل مشكلة أو أزمة حل مؤقت يسير ، تتحمله النفوس فى غير عناء ولكنه غير قاطع ، وآخر شاق بعيد الأثر فى الحياة ، وهو وحده مصدر الاستقرار والاطمئنان .

والقرآن بما عرضنا هنا من مبدأ اجتماعى ونفسى يوصى باتباع الحل الجذرى للمشكلة أو الأزمة وإن ترتب عليه تحمل المشاق . واتباع هذا الحل الجذرى يراه الإسلام جزءاً من السياسة الرشيدة للأمة .

***

(١) الأنفال : ٧
(٢) الأنفال : ١٢

• الإيمان .. والقتال :

يحدث الإيمان بالله فى نفوس المقاتلين صوراً عديدة ، لا تبعدهم فحسب عن التهيب من القتال ، وإنما مع ذلك تدفعهم إلى لقاء الأعداء والنصر عليهم .

ومن هذه الصور ما يذكره القرآن الكريم فى سورة الأنفال فى قول الله تعالى : إذ يريكهم الله فى منامك قليلا (أى يريك أعداءك فى نومك عدداً قليلا، تشجيعاً لك على لقائهم)»[1]. فيذكر الرسول عليه الصلاة والسلام، كقائد لجيش المؤمنين فى غزوة « بدر » : بالصورة الإيمانية النفسية التى ملكت عليه زمام أمره قبل لقائه مشركى مكة ، وهم فى طريقهم من الشام ، حتى كان يستحضرها فى نومه ، وهى تلك الصورة النفسية التى استخف فيها بعدد الأعداء ، ورأى فيها ضآلتهم . وقد نقلها إلى المؤمنين معه فانطبعت فى نفوسهم كذلك . وأصبحوا أيضاً عند مواجهتهم يرونهم قلة . ويحكى هذا الانطباع قوله تعالى فى الآية التالية : « وإذ يريكموهم ، إذ التقيتم فى أعينكم قليلا (أى يريكم — أيها المؤمنون — أعداءكم ، رؤية عين ومشاهدة ، حينما التقيتم بهم فى القتال : قلة فى العدد ، على نحو ما نقل إليكم الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، ما رآه فى منامه)[2] .

فقوة الإيمان دفعت الرسول عليه السلام والمؤمنين معه — وتدفع فى كل وقت بعد ذلك — بالروح نحو القتال إلى تصور : أن أمر الأعداء هين ، عندما يزداد تعلقهم بالدنيا ، وتغلب عليهم الأنانية ، ويخف عندهم شأن التضحية . ولا يقاس أمر هؤلاء عندئذ بكثرة عددهم . فهم رغم كثرة العدد قليلو الأثر عند المواجهة واللقاء فى القتال .

(١) الأنفال : ٣٤. (٢) الأنفال ٤٤.

والله يمتن الآن فى غزوة بدر على المؤمنين : أن هداهم للإيمان ، حتى قويت فيهم روح التضحية فى سبيل الله ، والمصلحة العامة للأمة ، وتثبيت القيم العليا للإنسانية . وعن قوة هذه الروح كان النصر لهم على أعدائهم. فهو يذكرهم بالنجاح فى هذه الغزوة مع أن الوضع القتالى كان غير ملائم لهم فى ميدان القتال . فقد كان عددهم قليلا .. وكانوا يقفون بشط الوادى ، دون ماء لهم ولإبلهم ، وعلى أرض رخوة تسوخ فيها الأرجل .. كما كان ركبهم على الإبل بعدهم إلى أسفل ، قريبا إلى البحر ، لا يستطيع توفير الحماية لهم إلا بمشقة . بينما أعداؤهم كانوا كثيرين فى العدد والقوة .. يقفون على ربوة عالية ، ولديهم آبار المياه .. وكان ركبهم على العير وراء ظهورهم مباشرة ويستطيع حمايتهم فى يسر .

ولكن مع عدم التعادل بين الطرفين فى القوة المادية وفى الوضع الاستراتيجى فى ميدان القتال كان النجاح فى جانب الطرف غير المتفوق فى العدد ، والقوة والموقع . وهو جانب المؤمنين ، لأن هؤلاء كانوا متفوقين فى قوة الإيمان بالله ، وفى بيعهم نفوسهم ، وما تملك أيديهم ، فى سبيل الدفاع عما يؤمنون به من قيم ومبادىء إنسانية رفيعة .

ولو أن إيمانهم كان ضعيفاً لهيبوا لقاء أعدائهم . إذ كانوا يتصورون عندئذ : تفوقهم فى القوة المادية أكثر بكثير من واقع أمرهم . وكان هذا التصور يوحى لهم بالتردد ، ثم بالنزاع فى الإقدام عليهم ، ثم بالفشل والهزيمة أخيراً . « ولو أراكهم كثيراً (أى ولو أراكم أيها المؤمنون أعداءكم كثيراً فى هذه الغزوة فى تصوركم) لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ، ولكن الله سلم (بأن كان إيمانكم يعمر قلوبكم ويسد عليكم منافذ الشك

فى النصر عليهم ، ويحول دون التردد ودون عدم التضحية بنفوسكم فى سبيل عزتكم وعزة إيمانكم) إنه عليم بذات الصدور »[1] .

• وإذا كانت قوة إيمان المؤمنين صورت لهم أعداءهم قلة فى العدد والشأن ، وبذلك دفعتهم إلى الإقدام على قتالهم . . فإن خداع هؤلاء الأعداء وغرورهم بكثرة عددهم فى الواقع دعاهم إلى تصور قلة المؤمنين وضعف أمرهم، وبذلك لم يترددوا فى القاء بهم كذلك ، وهنا تمت المعركة . . وتم لقاء المؤمنين بأعدائهم ، ولقاء الأعداء بالمؤمنين ، مع اختلاف الدافع على اللقاء إذا كان هذا الدافع عند المؤمنين قوة إيمانهم . . بينما كان عند الأعداء تقليلهم لأمر المؤمنين . ولولا هذا الدافع المختلف على معركة « بدر » لكل من الطرفين ما كان اللقاء بينهما ، وبالتالى ما كان النصر لأولئكم المتفوقين فى الإيمان بالقيم العليا ، وهم المؤمنون .

وإرادة الله جل شأنه إذن : شاءت هذا اللقاء لأول مرة بين المؤمنين والوثنيين الماديين ، كما شاءت أن يكون النصر للإيمان ليتجلى الناس ، وليسجل فى تاريخ القتال والحرب : أن قوة الإيمان بالقيم العليا — وأمارة هذه القوة هى التضحية بالنفس والمتع المادية ـ عامل حاسم فى النصر ، وإن كان ميزان القوى المادية بين الطرفين ليس متساوياً . أو من جانب آخر ليتجلى : أن القوة المادية من غير إيمان لاتقوى على هزيمة المؤمنين وإن كانوا ضعفاء :

« وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ،

ويقللكم فى أعينهم ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا (وهو نصر المؤمنين

---

(١) الأنفال : ٤٣

القلة إذ ذاك) وإلى الله ترجع الأمور (فهو الذى يحسمها ويفصل فيها . وقد وعد بنصر المؤمنين . ووعده حق عليه ، لا يخلفه)[١] .

***

• من يدعو إلى الخير والإصلاح فالله يقيه السوء :

يقول الله لرسوله محمد عليه السلام :

« يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك (فيطلب إليه تبليغ الوحى إلى أقربائه ، وأعدائه ، وأتباعه على السواء) .

وإن لم تفعل (فجاملت الآخرين فى التبليغ فلم تنذر الزعماء بما كلفت بإنذاره إياهم ، طمعاً فى مرضاتهم ، وخوفاً من مكروهم) فما بلغت رسالته (فأنت عندئذ ـ عند مجاملتك إياهم فى تبليغ المطلوب إليهم ـ لم تبلغ ما أرسلت به من قبل الله) .

والله يعصمك من الناس (ولا تخش على حياتك من هؤلاء الزعماء . فالأمان لك قد تكفل به مولاك جل جلاله ، وعصمتك منهم تعهد بها صاحب الوجود ، وصاحب الخلق والحركة فيه ، وهو الله تعالى اسمه فى الأرض والسماء) .

إن الله لا يهدى القوم الكافرين (وهناك حقيقة لابد أن تعلمها وهى: أن الزعماء فى المجتمعات المادية التى تدعوها برسالتك إلى الحق وإلى الصراط المستقيم ليس من السهل إقناعهم . لأن عدم إقناعهم ليس بسبب عدم الدليل والحجة على ما تدعوهم إليه . وإنما بسبب وظائف الزعامة فى المجتمع ، وهى وظائف لها وفرة من المال ، وكثير من الجاه ، ونفاذ فى الحكم . وهنا هم

---

(١) الأنفال : ٤٤

يبتعدون عن الهداية بحيث يصبحون أتباعاً وليسوا زعماء ، ولكن رغم ذلك يجب أن تبلغهم بما يوحى إليك وإن كانوا لا يرضون عنه بسبب صلفهم وعنجهيتهم ، ولا يرضون عنك بسبب إزعاجك لهم بدعوتهم إلى ماتدعوهم إليه من حق، وبطلبك إياهم تجنب الباطل في حياتهم وحياة من يتزعمونهم) »(١) :

فتقرن الآية طلب تبليغ الوحى بضمان وقاية الرسول عليه السلام من السوء ومن أى مصدر يأتى منه . وضمان الله وقاية الرسول من السوء ليس لأنه رسول ، وإنما لأنه داعية إلى خير الناس وهدايتهم . فالداعية لا يأخذ أجراً ممن يدعوهم ، وليست له مصلحة شخصية بينهم ، كزعامة أو رياسة وإنما يدعو لوجه الله فقط ، وأمين على مايدعو إليه لايزيد فيه حرفاً ، ولا ينقص منه حرفاً ، وبذلك يكون متمحضاً لفعل الخير ومن هنا يضمن الله وقايته من أعداء الدعوة والمتربصين بها شراً .

وإذ يضمن الله حياة الرسول ، أو حياة الداعى إلى الهدى والخير ، فإنه يضمن فى الواقع وجود دعوته بين الناس . ووجودها بين الناس ضرورة من ضروريات الحياة الإنسانية . فالعقل فى الإنسان قد يضعف أمام هواه . ولذلك يخطىء الإنسان ولا يعرف جانب الصواب : « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً (وهو لباس الهداية والرسالة الإلهية) يوارى سوآتكم (أى يستر نقائصكم . وهى تلك النقائص التى لا يستطيع العقل البشرى أن يتلافاها) وريشا (أى ومع كون هداية الله ستراً لنقص الإنسان فإنها كذلك زينة للإنسان لأن اتباعها يجنبه الأخطار) ولباس التقوى ذلك خير (أى وهذا اللباس الذى يقوم على اتقاء الموبقات وتجنب الفواحش والمنكر، والأخطار والآثام ـ كما جاء فى هداية الله ـ هو خير من العقل الذى قد يضعف

(١) البقرة : ١٨٦

فلا يدفع هوى لنفس أمارة بالسوء »(١).

والداعية إلى الحق والإيمان بالله إذن كما يلاحقه اليأس من عدم نجاح دعوته : لا يلاحقه الأذى والضرر من عدو الله لعصمة الله إياه ، ووقايته إياه من مؤامرة الإنسان . «ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين»(٢).

• • •

• إطمئنان المؤمن إلى ولاية ربه :

ليست حياة الإنسان كلها رخاء . وليس وقوف الأقرباء والأصدقاء بجانب الإنسان فى الأزمات أمر موثوق به . وليست طاقات الإنسان فى كل حاضرة ، كى تصد العدوان عليه أو تنقذه من مشاكله وشدائده . ولذا فالإنسان فى حاجة إلى سند دائم يفوق فى قدرته وتدبيره كل مخلوق موجود لا يغلب على أمره بحال .

والله وحده صاحب التفوق فى قدرته وعزته ، وصاحب الكلمة إذا قال : كن فيكون . وقد وعد سبحانه : أن يكون قريباً من عباده المؤمنين يجيب دعوة الداعى منهم . لا يتركهم وحدهم فى شدائدهم ، ولا يتخلى عنهم فى أزماتهم . وقد قال : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب، أجيب دعوة الداع إذا دعان»(٣) . : ووعد هنا ، ووعده لا يخلفه أبداً .

وما على الإنسان الذى يريد أن يطمئن فى حياته إلى سند أمين موثوق به يقف بجانبه فى وقت الحاجة والشدة ، إلا أن يستجيب لدعوة خالقه فى رسالته ، ويؤمن به وحده ، لا يشرك معه موجوداً آخر فى العبادة ،

---

(١) الأعراف : ٢٦

(٢) آل عمران ٥٤ .

(٣) البقرة ١٨٦

ولا يطلب من سواه ما قد تدفع الضرورة إلى طلبه . فإذا استجاب إلى دعوة الخالق فى رسالته فإنه سيأمن الزلل والانحراف فى السلوك والمعاملة للآخرين : وبذلك يكون رشيداً فى فعله وتصرفاته . وإذا آمن به وحده يكون قد احتفظ بكرامته كإنسان ، ودفع عنه الامتهان والمذلة التى تصيبه عندما يسلك طريق الوثنية والشرك : « فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى ، لعلهم يرشدون »[1] .

***

ونفس الاستجابة للخالق فى رسالته ستقلل من أزمات المؤمن به. لأن معنى الاستجابة لذلك : أن يحد المؤمن من اتباع الشهوة والهوى فى النفس، وأن يشارك الآخرين معه فى متع هذه الحياة ، وفى فرصها التى ستتكافأ حتماً، عن طريق عدم طغيان الأنانية . وإذا قلت أزمات الإنسان، وقلت مواجهته للآخرين معه ، فى عدوانهم أو فى تربصهم للعدوان ، كان هناك مجال أساسى فى نفسه للاطمئنان ، يزيده ، عمقا وسعة : اعتماده على الله وحده .

والاحتمال فى حياة المؤمن لترقب الأزمات والشدائد ، يكون بسبب الإيمان ذاته . فليس من السهل على المؤمن أن تمر حياته فى يسر ، أو فى رخاء، دون أن يصطدم بطغيان المادية التى هى العدو الأول والأخير للإيمان بالله . ولكن بالصبر ، مع الركون إلى الله، ينتهى أجل الأزمة والشدة، دون أن يفقد من إيمانه شيئاً .

ثم طالما كان المؤمن ليس هو الإنسان المترف، أى الذى يمارس الترف أو يسعى إليه كهدف فى الحياة ، فالمعاناة التى سيجدها فى أزمته ، ستمر عليه عندئذ ، دون أن تترك أثراً يشككه فى قيمة الإيمان .

---

(١) البقرة : ١٨٦

• فإذا لم يستجب الله لدعوة الداع، وإذا لم يحس الداع بالاطمئنان النفسى لسند الله إياه وقت الشدة . فليثق أولا فى أنه من عباد الله . لأن استجابة الله مرهونة بأن الداع من عباده . أى إنه من المخلصين فى إيمانه ، والمهتدين بهدايته فى تفكيرهم وفى أفعالهم .

فالمؤمن على سبيل الحقيقة هو الذى يشعر بالسكون والاطمئنان فى جانب الله. ويشعر بالقوة عندما ينادى الله: « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون »(١).

***

• الحرية هى سبيل العدالة الاجتماعية :

• يرى الإسلام فى المال : أن ملكيته ملكية خاصة ، وأن منفعته منفعة عامة ، للمالك ولغير المالك على السواء .

يقول القرآن الكريم :

« والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق (البعض يملك منه كثيراً .. والبعض يملك منه قليلا .. والبعض لا يملك منه شيئا) .

فما الذين فضلوا (وهم أصحاب الأموال) برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم (أى لا يردون من أرزاقهم وأموالهم التى يملكونها على عبيدهم وأرقائهم ، إن هم أنفقوا عليهم منها) .

فهم فيه (أى فى الرزق الذى بأيدى المالكين له) سواء (أى فى الانتفاع به . لأن الرقيق لا يجوز له أن يملك وهو نفسه ملك سيده ، فهو وما بيده فى ملك سيده)(٢) . فالآية القرآنية تحدد هنا أمرين فى شأن المال:

---

(١) الأنفال : ٢ (٢) النحل : ٧١

الأمر الأول : أن ملكية المال فى الأصل ملكية خاصة ، وأن التفاوت فى الملكية بين الناس من سنن الحياة الإنسانية .

الأمر الثانى : أن منفعة المال الخاص — أى المملوك ملكية خاصة — ليست قاصرة على مالكه ، بل يشترك فيها من لا يملك المال أيضاً ، ولا يجوز لهم أن يملكوه كذلك .

فتعقيب الآية بقولها : « فهم فيه سواء ».. يفيد أن المساواة بين المالك وغير المالك للمال هى مساواة فى قضاء المصلحة فيه . أى مساواة فى الانتفاع به . وبذلك ينتفى أن يراد من قوله تعالى : « فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم ».. إن الإنفاق على الأرقاء من مال أسيادهم لا ينقص من أرزاق هؤلاء الأسياد شيئاً ، على نحو ما جاء فى الصدقات فى قول الله تعالى : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » . فالصدقة هى إخراج من مال المتصدق ، وليست إضافة إليه ، ومع ذلك فهى سبب فى نمو المزكى عند الله .

وإذا كان الأرقاء أصحاب مصلحة ومنفعة فى أموال أسيادهم — كما تذكر الآية هنا — فإن أصحاب الحاجة فى الأمة عامة بحكم الزكاة تتعلق حقوقهم فى سد حاجاتهم بأموال الأغنياء فيها الذين تجب عليهم الزكاة وبالمقادير المقررة فى أموالهم .

وإذا كان رأى الإسلام فى المشاركة فى منفعة المال حتى هذه اللحظة رأيا نظريا فإن تطبيقه يتوقف فى حياة الإنسان على أداء عبادتين : أولاهما : عبادة الصوم . فهذه العبادة إذ تعد الصائم لأن يسود بإرادته على شهوته وهواه ، فإن سيادته هذه هى العامل الحاسم فى جعل المشاركة فى منفعة المال ، أمراً واقعياً . فهذا الصائم قد اشعدت إرادته باختياره الحرمان فى صومه ، دون أن تلين قناته لميل أو إغراء شهوة .

• وطالما كان عامل الإرادة القوية قائماً فى نفس الإنسان فإنه لا يتردد فى إشراك الآخرين أصحاب الحاجة معه فى منفعة ماله، اعتقاداً منه أن هذه المشاركة مصدر آخر للقربى إلى الله .

وثانى هاتين العبادتين : الزكاة . فهى الممارسة العملية للإرادة الحرة فى الإنسان التى تكونت عن طريق الصوم . والزكاة يمكن أن يماطل فى إخراجها الإنسان إذا لم يأخذ نفسه بأداء عبادة الصوم ، أخذا يجعل الصوم عنده ، عادة تؤدى فى غير مشقة .

والعدالة الاجتماعية عن طريق المشاركة فى منفعة المال لا تتحقق ولا تؤدى فى يسر إلا إذا كان هناك التزام خلقى من الأفراد بتعبيد الطريق لها. والإيمان بالله ، والتدريب على أداء عباداته هو الطريق المعبد لها ، وليس الالزام بقوة القانون ، أو بفرض وصاية على الأموال .

***

• أداء الصوم هو الطريق إلى الحرية :

طلب القرآن من الرسول محمد عليه الصلاة والسلام : أن يبلغ رسالة الله إلى الناس ، دون أن يحمل واحداً منهم على الإيمان بها. يقول له :

« وقل الحق من ربكم ،

فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر »(١) .

ثم يعلن القرآن بعد ذلك إرادة الله فى شأن المال ، ويسجل أنه سبحانه وتعالى يعطى من نعمة المال والرزق الكافر ، كما يعطى المؤمن : وربما يزيد فى عطائه للكافر عن عطائه للمؤمن . تقول سورة الإسراء :

(١) الكهف : ٢٩

« كلا نمد هؤلاء ، وهؤلاء (أى الـكافرون والمؤمنون) من عطاء ربك.
وما كان عطاء ربك محظوراً .

انظر كيف فضلنا بعضهم (أى فى الرزق ، وهم الـكافرون) على بعض (وهم المؤمنون فيعطى الـكافر من المال أكثر مما يعطى المؤمن) .

وللآخرة (أى بالنسبة لجزاء المومن) أكبر درجات، وأكبر تفضيلا »[٢] .

ويقتصر رسالة الرسول على إعلان الحق فقط .. وتسجيل القرآن إرادة فى شأن المال بالنسبة للمعارض والمؤمن على السواء : يترك الله سبحانه الإنسان جوا طليقا يمارس فيه مشيئته نحو الإيمان، أو نحو الـكفر برسالة الله. وللإنسان الآن حرية ، أى أن إرادته غير مقيدة . وهو غير واقع تحت تأثير الخوف أو التهديد بما من شأنه أن يحمله على أن يتجه اتجاها معينا بمشيئته .

• ولـكن على أى نحو تـكون ممارسة الإنسان لحريته ؟. وبعبارة أخرى على أى نحو تـكون ممارسة الإنسان لحريته ممارسة سليمة ؟ أو ما هى حدود الفوضى فى الرأى ، وما هى أمارات الصحة فى ممارسة الحرية ؟ .

إن الفرق بين الفوضى والحرية السليمة فى الرأى هو الفرق بين الرغبة الشخصية ، والتجرد عن هذه الرغبة .. هو الفرق بين الهوى ، والتجرد عنه، عند تـكوين الرأى والتعبير عنه .

يكون الإنسان حراً — أى متخلصاً من هواه ورغباته الشخصية — عندما يستهدف برأيه المصلحة العامة وحدها ، وإن كانت له مصلحة كأى فرد آخر فى تحقيقها ضمنا .

ولـكى يتحرر الإنسان من تأثره بهواه وبرغباته الشخصية — أى لـكى

---

(٢) الاسراء : ٢٠/٢١ .

يكون حراً — يجب أن يمارس عبادة الصوم . لأن أداءها يقوم على إرادة الحرمان مما ترغب فيه نفس الصائم وتميل إليه وتهواه . فالصائم يحرم نفسه بإرادته مما تشتهيه نفسه . وليس حرمانه نتيجة عجز وعدم استطاعة، أو نتيجة تهديد وخوف من أحد من الناس .

وعن إرادة المحرمات تتكون عادة الحرمان نفسها . وإذا ما تكونت عادة الحرمان تمكن الإنسان من أن تكون له سيادة على نفسه وميولها وشهواتها . وفى جو سيادة الإنسان على نفسه يمارس الحرية الصحيحة فى الرأى . لأنه جو « التجرد » من الميول والأهواء .

وهكذا : شاءت إرادة الله ألا يهدد هو — الإنسان — بالجوع أو بالتشرد فى سبيل لقمة العيش إذا لم يمتثل لإعلان الإيمان برسالة الله .

وشاء توجيه الله لرسوله عليه السلام أن يعلن الحق ، من غير أن يكون له سلطان على أحد فى حمله على الإيمان .

وشاءت هداية الله أن ترسم للإنسان الطريق السليم لحرية الرأى ، حتى لا يظلم نفسه ببقائه فى ضلال الأهواء والشهوات . وهو طريق عبادة الصوم .

وأعظم شأن الصوم فى هذا المجال نسبه الله إليه ووعد بالجزاء عليه : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » .

* * *

الفصل الثالث

قيادة المجتمع الاسلامى

- عند النصر يذكر المؤمن : الله . . ويراجع نفسه
- من الهزيمة تستخلص عوامل النصر
- ارتداد الضعفاء لا يحزن القيادة الرشيدة
- التبصير بالسلوك الإنسانى ضرورة اجتماعية
- التنبيه المستمر إلى تلافى الانحرافات ، يحفظ على المجتمع تماسكه
- بقاء المجتمع فى استقامة أفراده
- الشورى ضرورة اجتماعية
- حكمة التوجيه قد تقضى بالوعد بالنصر مسبقا
- النفاق والقيادة الرشيدة للمجتمع
- المنافقون يكشفون عن أنفسهم

• عند النصر يذكر المؤمن: الله.. ويراجع نفسه:

نشوة النصر في مجال ما، قد تجر المنتصر إلى الغرور.. فالطغيان. فقد ينسى المنتصر عوامل النصر التي ساهمت فيه، ويكون على ذكر فقط لواحد من بينها، هو ذاته. وعندئذ يركز المنتصر على الذات، ويبرز أهميتها في النصر. وربما يغفل رويداً، رويدا: العوامل الرئيسية التي حملت في الحقيقة لواء النصر: من الإيمان بالله إلى درجة حب الإستشهاد في سبيله.. ومفاجأة العدو بالقتال، في اللحظة التي يكون مطمئنا فيها إلى استبعاد القتال.. وحسن التدريب على القتال، وحكمة القيادة فيه.. وحسن التأني في إحكام التدبير للقاء.. وغير ذلك من العوامل الجانبية الأخرى.

وإذا انتهى أمر النصر إلى إبراز ذات المنتصر وحدها، وإغفال العوامل الرئيسية فيه سار الأمر إلى طريق الهزيمة عند اللقاء المقبل للعدو، إن وقع قتال.. أو إلى طريق الفشل في تدبير الشئون الداخلية للأمة، وسياسة توجيهها. لأن العامل الشخصي — وهو ذكر ذات المنتصر وحدها — عامل مبغّض ومفرّق، وعند التباغض والفرقة يسود الضعف، ويذهب التجمع للأفراد حول هدف واحد، فوق مصالحهم الشخصية والفردية.

ومن أجل ذلك يدعو القرآن الكريم المؤمنين عند انتصارهم على أعدائهم أن يتذكروا مساندة الله لهم في النصر. إذ قد رفع إيمانهم إلى درجة عليا هي درجة الاستشهاد في سبيل المبادىء، وليس في السعي لتحقيق المنافع الشخصية، وألهمهم الصبر والتحمل، وربط بين قلوبهم جميعا صفا واحدا، وراء هدف واحد ترتبط به مصالحهم جميعا، ومع ذلك ليس لصالح مجموعة دون أخرى. وهو هدف الوجود الحرّ المؤمن الذي يمارس فيه إيمانه بحرية تامة، كما دخله حراً غير مكره وغير ملزم من آخرين به، حتى من الله ذاته: «لا إكراه في الدين»:

يقول الله تعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح (أى إذا جاء نصر الله فى ميدان القتال . . وجاء فتحه للقلوب التى كانت مغلقة دون الإيمان بالله وحده) ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا (لأنه لم يعد هناك إرهاب من عدو متربص بالإيمان ، ولا صاد عنيف عن دينه ، ولا مادى يسخر ، ويعتز بالحياة الدنيوية وحدها . . كذلك لم يعد هناك طمس للحقائق ولا تشويه المبادىء ، وإنما الاقتناع برسالة الله أخذ طريقه سهلا نحو القلوب التى لا يعوقها عائق الآن : من خوف ، أو قلق على المستقبل) فسبح بحمد ربك (أى عندما يحل النصر على الأعداء وتزول العقبات من طريق القلوب ، فيجب على المؤمنين — والرسول عليه الصلاة والسلام فى مقدمتهم — أن يعلنوا ثناءهم على الله ، وأن يذكروه فى فرحهم بنصرهم ، كما ذكرهم هو فى شدتهم فى القتال ، وفى أزماتهم عند التحدى لهم ، بسبب إيمانهم به وحده) .

وفى ذكر الله عند النصر ضمان لعدم مبالغة الإنسان فى ذكر نفسه . . فى هذه المناسبة . . وبالتالى ضمان إلى عدم طغيانه . وبذلك يبقى الإنسان فى نطاق الاعتدال ، إن اغتر بنفسه ، بجانب حمده لله وذكره إياه بالخضوع والطاعة له . على أنه قد يترقب من الإنسان : كلما ذكر وأثنى عليه ، كلما ضؤل شخصه أو ذهب فى ذات المولى سبحانه ، فلا يرى فى الوجود إلا الله وحده . وعندئذ لا تخدعه الدنيا ولا تغريه بحال . وفى ذلك سلامة للعوامل التى دفعت إلى نصر المؤمنين على أعدائهم ، وبقاؤها قوية ذات فعالية .

كما يدعو القرآن عند النصر — بجانب ذكر الله — إلى مراجعة المؤمنين أنفسهم حين القتال السابق : هل كانوا على مستوى الإيمان المطلوب ؟ . . هل تجردوا تماماً عن الأغراض الدنيوية عند لقائهم أعداءهم ؟ هل لم يباشروا خطأ ، ولو فى التصور النفسى ينقص فى درجة إيمانهم ، وبالتالى فى جزاء الله

لهم ، وفى تقبله جهادهم فى سبيل الله تقبلا حسنا ؟ يقول سبحانه استمراراً فى سورة النصر : « واستغفره إنه كان توابا (والخطاب الآن موجه إلى الرسول الأمى محمد بن عبد الله ، عليه صلوات الله وسلامه . ويطلب إليه كما يطلب إلى المؤمنين (عند خروجهم منتصرين من قتال مع أعدائهم — أن يراجع نفسه ، ويراجعوا هم أنفسهم أثناء القتال السابق . فإن كانت قد دخلت نفوسهم ميول نحو الدنيا ، عند الذهاب إلى القتال ، أو فى أثنائه ، أو بعد النصر على الأعداء ، فليطلبوا من الله المغفرة ، ومن صفاته سبحانه : أن يغفر المؤمنين به زلاتهم ، كلما أخطأوا وعادوا إليه مستغفرين .

وطلب المغفرة هنا قصد به وقاية المؤمن مستقبلا من دفع الميول النفسية له نحو السعى — بعد النصر — إلى تحصيل الدنيا ، وخفة وزن ذكر الله فى نفسه بجانب ذلك .

إن النصر مستمر للمؤمن ، إن ذكر الله بعد نصره . . وأن الهزيمة آتية لا محالة لمن يغتر بنصره ، ويطغى به . ذكر الله وقاية من الهزيمة ، وضمان للنصر على الذات ، وعلى الأعداء معاً .

***

من الهزيمة تستخلص عوامل النصر :

فى نداء الله المؤمنين — بعد هزيمتهم فى « أحد » — فى قوله تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون » . . ما يحيى فيهم الأمل من جديد بكيانهم ومستقبلهم كأمة لها شأنها فيما بعد . ففي ندائه لهم هنا يطلب إليهم : ألا يقبلوا الإهانة فى صورة ما ، فى مواجهة أعدائهم الأقوياء ، بسبب هزيمتهم فى قتال « أحد » . . كما يطلب إليهم ألا يتركوا الحزن على تلك الهزيمة يشق طريقه إلى نفوسهم ، ويصدهم عن طريق الانطلاق فى دعوتهم

والأمل فى نجاحها . ويبنى نداءه على أن الإيمان بالله أرفع مستوى من الكفر به . . وأن المؤمنين أعلى وأرق نوعاً من أولئكم الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجاً . فهؤلاء فى ضلال وفى حيرة وفى قلق نفسى دائماً . لأنهم لا يسعون إلا إلى متع الدنيا وحدها ، ومع ذلك لا يضمنون تحصيلها ، وإن حصلوها لا يضمنون ألا تفلت أيديهم . فكيف إذن يترك المؤمن نفسه للإحساس بالإهانة والمذلة وبالحزن على خسارته فى جولة من جولاته مع عدوه كما يؤسس القرآن ما يطلبه الله هنا من المؤمن وما يتوقعه من تنفيذه منه فى حياته النفسية : على صدقه فى الإيمان بالله : « إن كنتم مؤمنين » .

ثم يوضح الله جل جلاله المؤمنين : أن هزيمتهم فى « أحد ».. لا تحمل إطلاقاً معنى الإهانة لهم . . وبالتالى لا تدعوهم إلى الاسترسال فى الحزن على ما وقع فيها . لأن المبدأ السائد فى الحياة — وهو قانون من قوانينها — أن ليس هناك طرف منتصر دائماً . . وليس هناك لذلك طرف منهزم دائما . وإنما الأسباب التى تدعو إلى النصر . . والأسباب الأخرى التى تدعو إلى الهزيمة هى أسباب متبادلة بين الطرفين ، ومتبادلة بين الناس جميعاً : «وتلك الأيام نداولها بين الناس » وما نزل بكم من خسارة فى « أحد » قد نزل مثلها بالأمس فى « بدر » فى جانب أعدائكم : « إن يمسسكم قرح ، فقد مس القوم قرح مثله » .

والهزيمة للجماعة المؤمنة فى قتال مع عدوها رغم أنه على باطل ، وأنها هى على حق وتدعو للحق وحده. ضرورة لابد أن تقع لها يوماً ما فى حياة الجيل منها . إذ من غير الهزيمة لا يقف المؤمنون عمليا على نقاط ضعفهم كبشر ، فى لقائهم مع أعدائهم . . ومن غير الهزيمة لا يعلم المؤمنون أنفسهم : كيف

انتصر أعداؤهم عليهم ، لأسباب ترجع إلى ذواتهم هم ، وليس لذوات الأعداء فإذا عرفت أسباب الضعف كان تجنبها في المستقبل هو : العامل الحاسم في نصر المؤمنين من جانب ، وفي الوقت نفسه لهزيمة الأعداء الكافرين من جانب آخر : « وليمحص الله الذين آمنوا » أى كانت هزيمة « أحد » ليميز الله المؤمنين حقا من المنافقين بينهم الذين يقفون عند إعلان الإيمان فقط ، كسبا للدنيا ، أو خداعا للصادقين في إيمانهم) ويمحق الكافرين (وفي الوقت نفسه تعرف من هزيمة المؤمنين : كيف تكون الإطاحة والمحو للأعداء الكافرين في اللقاءات المقبلة معهم) .

وتمحيص الله المؤمنين بين الصادق منهم والمريب ، هو تمحيص علني وعملي أمام الرسول عليه السلام ، وأمام المؤمنين جميعا . إذ الله يعلم حقيقة المؤمن ، من المنافق . وهو من أجل ذلك ليس علمه في حاجة إلى تجربة يهزم فيها المؤمنون بسبب المنافقين في إيمانهم بينهم . وإنما التمحيص كشف لأصحاب النوايا السيئة الذين دخلوا الإيمان رغبة في دنيا ، من وراء إعلان الإيمان : وليعلم الله الذين آمنوا (أى كانت الهزيمة ليعرض لكم : ما يعلمه الله من المؤمنين الصادقين) وليتخذ منكم شهداء (ثم من جانب آخر ليعرفكم بأن أصحاب الإيمان القوى الذين يقاتلون في سبيل الله صدقا وعدلا ، هم شهداء عنده ، ولهم جزاء الشهداء في الآخرة .

والكشف العلني في تجربة القتال الصادق في الإيمان ، والمنافق فيه : تنقية عملية وتمييز للمؤمنين الصادقين وحدهم . وعندئذ إذا اشتبكوا من جديد كان النصر لهم والمحق لأعدائهم . إذ الله الآن معهم . لأنه لا يحب الظالمين « والله لا يحب الظالمين » . والظالمون هم أولئك المعتدون على القيم العليا في حياة الناس . . هم الأنانيون . . هم المشركون المذبذبون . . هم .

الكافرون . . ورسالة الله هى رسالة القيم العليا . والله جل جلاله عزيز لا يغلب ، ولا يقهر ، على رسالته للإنسان . فلا تصادر رسالته إطلاقا ، وإن ضعفت فى الأرض ، فلأجل معلوم .

وقد سجل القرآن وضع المؤمنين بعد هذا التمحيص والتنقية فى قوله :

« يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضع أجر المحسنين . الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح : للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم . إنما ذلكم الشيطان (يوم أحد) يخوف أولياءه (وهم المنافقون) فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين[(١)] » .

***

* ارتداد الضعفاء لا يحزن القيادة الرشيدة :

• الضعفاء فى المجتمع هم المنافقون . . وهم الانتهازيون . وهم مع ذلك يحذرون أن ينكشف أمرهم : « يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم »[(٢)] . وعند الأزمات والشدائد يحاولون التخلص من أداء الواجب : « وإذا ما أنزلت سورة (أى فيها وجوب القتال) نظر بعضهم إلى بعض : هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا »[(٣)] . ويتسترون وراء الحلف بالأيمان : « يحلفون بالله لكم ليرضوكم ، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين »[(٤)] .

---

(١) ال عمران :
(٢) التوبة : ٦٤
(٣) التوبة : ١٢٧
(٤) التوبة : ٦٢

وإذا تعرضوا لعمل عام بالنقد فمن زاوية مصلحتهم الخاصة : « ومنهم من يلمزك فى الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون »[١] . وهم يمارسون العهود الكاذبة : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به ، وتولوا وهم معرضون »[٢] .

وهؤلاء المنافقون — أو الضعفاء — مجموعة فى كل مجتمع . وهناك مجموعتان أخريان معها فى المجتمع كذلك : مجموعة المؤمنين بمبادىء المجتمع وبقيمه العليا ، وهى التى تسانده فى الشدة والرخاء بالأموال والأنفس . ومجموعة المعارضين الصرحاء فى معارضتهم . ومجموعة المنافقين أخطر بكثير من مجموعة المعارضين المكشوفين على المجتمع ، وعلى قيمه ومبادئه : إذ أنها لا تهتم بالقيم والمبادىء ذاتها فى المجتمع فهى تعيش فى كل مجتمع : إن انتهى مجتمع تسارع فى أن تكون المنفعة فى المجتمع الجديد . وأسلوبها فى التستر وراء سرعة إعلان الولاء والإيمان بأهداف المجتمع الجديد يتيح لها الفرصة فى أن تتقدم فى النفعية وفى أن توائم نفسها مع القيادة الجديدة . مع أنها ربما تكون مبغضة فى واقع الأمر لهذه القيادة : « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر ، وينهون عن المعروف ، ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فنسيهم ، إن المنافقين هم الفاسقون (أى الخارجون فى حقيقة أمرهم خروجا واضحا عن مبادىء المجتمع) »[٣]

***

---

(١) التوبة : ٧٩ — (٢) التوبة : ٧٦

(٣) التوبة : ٦٧

• والقرآن ينصح القيادة الرشيدة للمجتمع أولا : بألا يضيق صدور المباشرين لها عند مايتردد هؤلاء المنافقون بولائهم بين المجموعتين الأخريين: مرة إلى هذه المجموعة . . وأخرى إلى تلك المجموعة المقابلة : « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم »(١) . وينصح بذلك فى وقت لم تكن فيه الأمة من القوة فى وضع يمكنها من مواجهة الأعداء فى الخارج ، وأخذ هؤلاء النفعيين الضعفاء فى الداخل بما يسد عليهم هذا الطريق الرخيص ، اللا إنسانى للمنفعة الشخصية .

وإذ يوصى القرآن فى هذا الوقت بعدم الحزن وبعدم ضيق الصدر لتصرف هؤلاء المنافقين أو الضعفاء ، فلكى تستمر القيادة فى البناء فى طريق القوة والمنعة ، وفى التغلب على الصعاب الأخرى المادية أو النفسية التى تواجهها فى هذا البناء .

فاذا اشتدت الأمة وقويت فعلى القيادة أن تواجه هؤلاء المنافقين عندئذ بتقابل خطرهم وتضييق فرص النجاح أمام النفاق فى المجتمع : « يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم »(٢) فهم الآن مسادقون للمعارضين الصرحاء . كما لا ينبغى أن تخدع القيادة بأساليبهم وبما يملكون من إمكانيات من الأموال والعصبيات : « ولا تعجبك أموالهم »(٣) ويجب أن تعتبرهم فى عداد المعارضين الخطرين . إذ هم فى الواقع كذلك : « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا وهم فاسقون »(٤) .

---

(١) المائدة : ٤١ (٢) التوبة : ٧٣

(٣) التوبة : ٨٥ (٤) التوبة : ٨٤

وأسلوب القرآن فى نصح قيادة المجتمع باتخاذ هـذه المواقف المتدرجة من الضعفاء فى الأمة، وهم المنافقون: من عدم ضيق الصدر.. إلى المواجهة.. إلى اعتبارهم خارجين: إنما يتم نصحه على جوانب نفسية تصور الواقع الذى يجب أن تبنى عليه سياسة التوجيه، إذا أريد أن يكون هناك نجاح للقيادة فى المجتمع، وأن يكون بناؤه بناء متماسكا.

* * *

• التبصير بالسلوك الإنسانى: ضرورة اجتماعية:

• تأخذ الدعوة لمباشرة الخير، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، فى المجتمع الإسلامى — فى نظر الإسلام — منزلة الضرورة والواجب.

والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر: هى دعوة إلى بناء الروابط بين الأفراد على أساس من المستوى الإنسانى الذى تتحقق عن طريقه: الطمأنينة، ويتحقق السلام فى النفوس بين الأفراد. فالمعروف كل ما هو بناء نافع من التعاون المادى والأدبى، وتجنب المنكر هو تجنب كل ما يؤذى العلاقات، ويدفع إلى الخصومات والحزازات، وكل ما هو إعتداء على حرمات الإنسان فى ماله، ونفسه، وعرضه. أما الخير فهو توصيل للمنفعة إلى الآخرين، فى غير مبادلة، وفى غير منة عليهم.

وهذه الدعوة تأخذ منزلة الضرورة والواجب فى المجتمع الإسلامى. لأنها تذكير متواصل بما ينبغى أن تكون عليه العلاقات. وإذا أخذ من مفهوم قول الله تعالى: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون»[1] أن وجوبها هو على سبيل

---

(١) آل عمران: ١٠٤

الكفاية فهو واجب على أية حال تأثم الأمة جميعها ، إذا لم تأخذ هذه الدعوة طريقها بين الأفراد فيها ، من مجموعة بينها .

ويربط القرآن هنا بين الفلاح للأمة من جانب ومباشرة هذه الدعوة من جانب آخر ، مما يجعل أن من أسباب عدم نجاح الأمة في بنائها ، وفي تماسكها ، وفي مواجهتها لأعدائها : هو إهمالها للدعوة فيها إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وإذ يعبر القرآن هنا بقوله : «ولتكن منكم أمة (أي جماعة) ... مما يفيد أن قيام هذه الجماعة في مجتمع المسلمين أمر حيوي يستدعيه الهدف من الدعوة ذاتها : فهو يترك أمر قيامها والمشاركين في رسالتها ، وكيفية الأداء لها إلى المجتمع ذاته . شأنها شأن تحقيق : «الشورى» في قوله تعالى : «وأمرهم شورى بينهم»[1] . والفلاح المستهدف من هذه الدعوة ، كما تعبر الآية : « وأولئك هم المفلحون » ... إن تحقق ، دل تحققه على أسلوب الدعوة أو نظامها الذي ارتضاه المجتمع هو نظام سليم يوصل إلى غايته .

وعلى أية حال لا ينبغي أن تكون هذه الجماعة الداعية إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، في انفصالية أو في عزلة . وإنما المشاركون فيها هم أفراد تختلف وظائفهم أو مهامهم في المجتمع ، كل حسب طاقته وما أعد هو من أجله . فالإسلام لا يعرف فصلا بين دين ودنيا ، وإنما يعرف مسلمين فقط ، كل موجه إلى ما يستطيع مباشرته من عمل سياسي ، أو اجتماعي ، أو اقتصادي ، أو عسكري ، أو ثقافي .

وربما هناك صلة وثيقة بين طلب القرآن الكريم لقيام هذه الجماعة —

---

(١) الشورى . ٣٨

بعد الرسول محمد عليه السلام — التي تدعو إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وختم الرسالة الإلهية برسالة المصطفى محمد عليه صلوات الله وسلامه : لتجديد الدعوة وتذكير الناس بما فى رسالة الله فيما قبل المصطفى عليه السلام كانت تباشره الرسل السابقة فى الأجيال المختلفة،جيلا بعد جيل. وهم عديدون : « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك »[1] . وعندما ختمت رسالة الله بالقرآن ، والمصطفى عليه السلام كان الوحى يطلب قيام هذه الجماعة فى قول الله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر» . . لأن تذكير الناس برسالة الله وماجاء فيها من مبادىء من وقت لآخر : ضرورة بشرية تقتضيها طبيعة الإنسان نفسه ، طالما هو يعيش على هذه الدنيا . فالإنسان بعد إيمانه أيضاً مشدود إلى هواه . والعاصم له من طغيان هواه عليه : هو تجديد شأن الدعوة فى نفسه .

وإذا كانت مهمة هذه الجماعة هى تذكير الناس بالدعوة إلى الخير ،والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — وهى مهمة رسالة أى رسول من قبل — فمن عوامل نجاح هذه الجماعة بعدها كل البعد عن تقبل أجر عليها ، كما كان يفعل الرسل صلوات الله عليهم جميعا . وقد وجه القرآن رسول الله محمدا عليه السلام إلى إعلان المدعوين لدين الله بأنه لا يقبل أجراً على دعوته أسوة بما فعله الرسل السابقون عليه ، فى قوله تعالى :

« أولئك الذين آتيناهم الكتاب ، والحكم ، والنبوة ، فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين ،

أولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتده ،

---

(١)النساء . ١٦٤

قل لا أسألكم عليه أجراً ، إن هو (أى القرآن) إلا ذكرى للعالمين »[1]

ولعل من نجاح الدعوة : عدم الاحتراف بها ، والإخلاص فيها لوجه الله وحده ، وهذا وذاك هو الأسوة الحسنة فى الرسل السابقين .

***

• التنبيه المستمر إلى تلافى الانحرافات يحفظ على المجتمع تماسكه :

• تطالب رسالة الله منذ أن جاء بها رسول إلى قومه بأن تكون هناك مجموعة فى المجتمع تنبه إلى الأخطاء والانحرافات التى تقع فيه من حاكم ، أو من صاحب ولاية ، أو من آحاد الناس ، أو من عامتهم ، أو من أصحاب الجاه والنفوذ بالمال أو بالشرف بينهم .

وهذه المجموعة لا تؤلف حزبا منها ، ولا يصطنعها رجل سياسة أو حكم . وإنما تلتقى على كلمة الحق ، والرأى المجرد عن الحزبية والهوى ، وعلى الإخلاص فيما تقول ، أو فيما تبدى من نصح لله وحده . وإذا ذكر الله وحده قصدت المصلحة العامة ، التى لا تؤثر فريقاً على فريق آخر من الناس فيما تصدره من نصيحة أو رأى .

وتعلق رسالة الله أهمية كبيرة على هذه المجموعة من أصحاب الرأى فى المجتمع . إذ تسند إليها حفظ المجتمع من الضياع والسقوط . . كما تجعل من عوامل سقوط المجتمع خلوه من مثل هذه النخبة . وهذه النخبة إذ تصون المجتمع تصونه بالرأى البعيد عن المصلحة الشخصية ، أو بعبارة أخرى : البعيد عن الغرض السياسى والانتهازية المنفعة المادية ، ومنفعة الجاه والسلطة .

---

(١) الأنعام . ٨٩ .

يقول الله تعالى :

« فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم (أى لم يكن هناك فى المجتمعات البشرية السابقة التى أصابها الانحلال والظلم والطغيان، وقضى عليها بالفناء بسبب ذلك مجموعة تنهى عن الفساد فى الأرض ، عدا القلة القليلة التى نجت من الفناء والدمار، وهى الرسول وبعض من أتباعه . ولذا استشرى الفساد فى المجتمع).

واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه ، وكانوا مجرمين (وكظاهرة من استشراء الفساد استرسل المترفون فى ترفهم . وهم فى ترفهم كانوا ظالمين لغيرهم لأنهم رأوا فيما جمعوه من وسائل الترف : مصلحتهم وحدهم ، غاضين النظر عن مصالح غيرهم . وهم فى استرسالهم فى الترف كانوا ممعنين فى الاعتداء على حقوق الآخرين معهم من أصحاب الحاجة . ولذا كانوا مجرمين فى حق مجتمعهم . وعن استشراء الفساد ، واسترسال المترفين فى ترفهم ، وإجرامهم فى حق الآخرين معهم كان هلاك مجتمعهم وسقوطه)[1] .

وإذا كان هلاك المجتمع البشرى وسقوطه يعود إلى عدم وجود مجموعة من أفراده فيه تكشف عن وجه الحق والصواب — أى تباشر النقد الخالص، أو ما يسمى بالنقد البناء — عند وقوع الأخطاء والانحرافات فى توجيهه أو فى سلوك الأفراد فيه . . فإن بقاءه بالتالى وبعده عن السقوط يرتبط بوجود هذه النخبة وممارستها وظيفة النصح وإبداء الرأى لحاكم فيه ، أو لطائفة أو بعض من طوائفه ، تحذرهم عند الخطأ وترشدهم إلى معالم الصواب فى السلوك والتوجيه معاً .

---

(١) هود : ١١٩ .

وهكذا : الشورى .. أو حرية الرأى .. أو الإخلاص فى النصح ضرورة من ضرورات وجود المجتمع نبهت إليها الرسالة الإلهية منذ وجودها . وحرية الرأى التى ترمى إليها هذه الرسالة هى بعده عن الحزبية ، وعدم تأثره بمصلحة شخصية .. هى قول الحق لذات الحق .. هى قوله لوجه الله .

وإذا كانت ديمقراطية الحكم فى النظم المعاصرة تدور فى إطار الحزبية السياسية : فإن ما تنصح به رسالة الله : أن يكون الرأى الذى يعلو صريحاً فى المجتمع للتحذير من خطأ أو انحراف ، وللإرشاد إلى طريق الصواب ومعالمه : هو رأى يدور فى إطار الرسالة الإلهية وحدها ، تمليه هذه الرسالة فى غير إكراه عليه ، وفى غير محاولة مفروضة لاستخلاصه من بعض نصوصها . فرسالة الله إذا تركت وشأنها تملى على الإنسان ما يريده الله . وإذا حملها الإنسان على رأى مبيّت لم يكن ما تمليه هو ما لله ، وإنما هو ما للشيطان الذى سيطر على هوى الإنسان المكره .

***

• بقاء المجتمع : فى استقامة أفراده :

• إن رسالة الله فى كتابه العزيز تتضمن جملة من المبادىء التى تحكم المجتمع الإنسانى وفقاً لخصائص الطبيعة البشرية ، وهى بمثابة قوانين له تتمثل فيها إرادة الله . ولا راد لإرادة الله التى تعبر عنها هذه القوانين الاجتماعية ، وتقصها آيات القرآن الكريم :

• نقرأ قوله تعالى فى سورة هود :

« وما كان ربك ليهلك القرى بظلم (والقرى هى المجتمعات البشرية) وأهلها مصلحون »(١) .. نجد هنا فى هذه الآية : ارتباطاً وثيقاً بين بقاء المجتمع

---

(١) هود : ١١٧ .

وعدم سقوطه أو تغييره من جانب .. ومباشرة أفراده لمنهج السلوك المستقيم من جانب آخر. وهذا الارتباط هو قانون اجتماعى مفاده : ضمان بقاء المجتمع.. أو ضمان استقراره وبعده عن القلاقل والاضطراب : بأداء كل فرد فيه ما يجب عليه ، وأخذه ما له من حق قبل الآخرين .

فاستقامة الأفراد فى المجتمع ، بأدائهم لواجباتهم ، وبأخذهم لحقوقهم : مقدمة ضرورية لبقاء المجتمع فى صفاء علاقاته وفى بعدهم عن الحقد وعن تدبير السوء بعضهم لبعض . والعدل الإلهى هو إذن فى بقائه . والله تعالى بعيد كل البعد عن مباشرته الظلم .

فالإصلاح الذى جعلته الآية شرطا لاستقرار المجتمع هو عدم مباشرة الفساد . والفساد هو الانحراف فى صوره المختلفة :

١ — كالانحراف باستضعاف الضعفاء وأكل أموالهم من غير وجه مشروع ، كأكل أموال اليتامى أو النساء ، أو أجور العاملين .

٢ — والانحراف بقبول الرشوة عن طريق الحكم لأكل أموال الناس بالباطل .

٣ — والانحراف بإمساك منفعة المال عن سد حاجة المحرومين وأصحاب الحاجة ، كمنع الزكاة والشح بالإنفاق فى سبيل المصلحة العامة .

٤ — والانحراف بالاعتداء على حرمات الآخرين فى أعراضهم بالزنا ، وفى أموالهم بالسرقة ، وفى نفوسهم بالقتل بغير حق ،

٥ — والانحراف بتولية ذوى القرابة والصلة الوثيقة أمراً لا يحسنون أداءه ،

٦ — والانحراف بعدم أداء الأمانة ممن أئتمن عليها . وهى أمانة العمل لمن أئتمن عليه .. وأمانة القضاء ممن ولى أمره .. وأمانة التعليم لمن أسند

إليه التوجيه .. وأمانة النصح والمشورة من أهل الخبرة والتجربة ، كالطبيب مع مرضاه ، والداعي إلى الحق وإلى الله مع من يدعوهم لرسالته، وكل ذى خبرة يتوقف على خبرته إحقاق الحق فى ذاته ،

٧ — والانحراف بالطغيان بالمال ممن كان ذا قوة بماله . . وبالعصبية والقسوة المادية ممن كان ذا تفوق فى قدرته بعصبيته وقوته المادية ،

٧ — والانحراف بأية نعمة أخرى من نعم الله : كنعمة الصحة . . والعلم . . والجاه . . والسلطة .. والفكر ، والقلم ، فتسخير أى منها لترويج العبث والانحلال ، والضلال .

والمجتمع الذى يؤمن بالله ويكون أفراده من المصلحين هو المجتمع إذن المؤمن على مستقبله : لا يصيبه الخوف من داخله أو من خارجه ، وليس هناك ما يحزنه فلم يفرط واحد فيه فى أداء واجبه ، ولم يشعر واحد فيه بأنه حرم من حقه « فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »(١) .

ولذا كانت الدعامة الأولى عند تحويل المجتمع الذى مزقت المادية والجاهلية العلاقة بين أفراده : إلى مجتمع تسود فيه الإنسانية هذه العلاقة : هى : تقوى الله والابتعاد عن الطغاة الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون : « فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين ، الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون »(٢) . كان ذلك نداء صالح إلى ثمود ، كى يعيش فقراؤها مع أثريائها فى وئام ومحبة ، وكى يستقر مجتمعها فى غير تربص لزواله وتغييره ، اليوم أو غداً .

***

(١) الأنعــام : ٤٨ .
(٢) الشعراء : ١٥٠ ــ ١٥٢ .

• الشورى في الإسلام ضرورة اجتماعية :

• طريق الإسلام إلى الإيمان به هو طريق الإقناع والمشيئة فيها ، وليس طريق الإكراه والإلزام :

« وقل : الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » (١) .

وطريق المشيئة — في نظره لذلك — هو طريق الحياة للانسان في علاقته مع غيره . لا يلزم بأمر ما . وإنما يلتزم طبقاً لما آمن ، ويؤمن به . أى أن الإنسان يلزم نفسه بما يؤمن به وليس غيره يلزمه به .

ومن هنا كانت ممارسة « الشورى » صفة من صفات المؤمنين ، أى أنها جزءا من واقع حياتهم : يمارسها المؤمنون في الأسرة .. وفي مجتمع القرية .. وفي مجتمع المدينة .. وفي الأمة الإسلامية كلها . ويمارسها الجار مع جاره .. والأقرباء مع بعضهم بعضاً . ويمارسها صاحب الولاية على من يولى عليهم .. وهؤلاء مع من ولى أمرهم ، يقول الله تعالى :

« فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ،

وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا ، وعلى ربهم يتوكلون .

والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ،

وإذا ما غضبوا هم يغفرون .

والذين استجابوا لربهم ،

وأقاموا الصلاة ،

وأمرهم شورى بينهم ،

ومما رزقناهم ينفقون .

(٣) الكهف : ٢٩ .

والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون »[١] .

فقرنت هذه الآيات ممارسة الشورى بإقامة الصلاة ، والإنفاق لأصحاب الحاجة من أموال الموسرين ، مما يدل على أهميتها فى حياة المؤمنين ، كأهمية الصلاة فى صفاء النفس ، والإنفاق فى التكافل .

ورب الأسرة لذلك ليس مستبداً فيها . وإنما أمر الأسرة بينه وبين زوجته وأولاده . وقوامة الرجل على المرأة فيما جاء فى قول الله تعالى: « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم »[٢] .. هى قوامة مسئولية فى المحافظة على الأسرة، ووقايتها من الأذى، ومن الحرمان .. هى قوامة تقوم على الشورى أولا بين أفراد الأسرة . أى تأتى مباشرتها بعد إتمام الشورى معهم .

وولى الأمر متحكم فى ولايته .. وإنما شأن ولايته على من يولى عليهم شأن الأمين فى مشورتهم للمصلحة العامة . وقد وجه القرآن الكريم رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أغرت دنيا الغنائم والأسلاب ، بعض من خرجوا معه فى غزوة « أحد » فانصرفوا إلى جمعها ، تاركين الرسول وقلة معه فى مواجهة المشركين الماديين ، وكانت هزيمة المؤمنين لذلك فى هذه الغزوة . . وجّهه إلى السلوك معهم مسلك اللين ، إلى العفو عنهم واستغفار الله لهم ، ثم إلى مشورتهم مع ذلك وأخذ رأيهم فيما يهم مجتمع المؤمنين إذ ذاك ، وبالأخص فى شأن القتال ووقاية الدعوة الإسلامية عن طريقه فيقول :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ،

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ،

---

(١) الشورى : ٣٦ ـ ٣٩ .
(٢) النساء : ٣٤ .

« فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر »[١] .

فمشاورة الرسول عليه السلام لهؤلاء الذين تخلوا عنه وقت المحنة يدل على أهمية الشورى فى حياة المجتمع الإسلامى ، وعلى أن بقاءه متماسكا يعود فى الأغلب إلى ممارسة هذه الصفة فى المجالات المختلفة لحياة الإنسان مع الآخرين معه .

ومن هنا لا يعرف الإسلام ثورة ولا انقلابا على الوالى الذى يمارس الشورى مع من ولى عليهم . إذ بسبب الشورى لا تكون هناك اتجاهات مضادة فى الظلام ضد ولى الأمر . فالنفوس تصفى رواسب القلق أو الشكوك فيها عن طريق إبداء الرأى وإعلانه عند ممارسة الشورى .

ومن هنا أيضاً كان أمر القرآن بالطاعة لأولى الأمر ممن يولون عليهم من المؤمنين ، على أن يسلكوا جميعاً بالخلاف فى الرأى بين الفريقين مسلك الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول (أى إلى كتاب الله وسنة الرسول القولية والعملية) إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر (أى إن كنتم بعيدين عن الاتجاه المادى فى حياتكم وهو ذلك الاتجاه الذى يدعو إلى المصلحية والانتهازية والمنفعية) ذلك خير وأحسن تأويلا . (والرجوع فى ذلك إلى كتاب الله وسنة رسوله فى شأن الخلاف فى الرأى بين أولى الأمر ومن يولون عليهم هو الطريق الأمثل والطريق الأسلم والخير لتماسك الأمة) [٢] .

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .
(٢) النساء : ٥٩ .

وهذه الآية التي جاءت بالأمر بالطاعة وتحريم مباشرة الانقلاب كوسيلة من وسائل فض الخلاف والنزاع .. جاءت بعد آية سبقتها تطلب من المؤمنين جميعاً أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها وأن يحكموا بالعدل إذا هم باشروا الحكم ، فتقول : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »(١) . ومن الأمانات التي يجب أن تؤدى إلى أهلها أمانة الشورى يؤديها الوالي ، ويؤديها معه من يولى عليهم .

● أما أسلوب الشورى أو طريقة تنظيمها فأمر متروك للمؤمنين في كل عصر وجيل . فقد تكون الصحافة .. وقد تكون الندوات .. وقد تكون مجالس أهل الخبرة والرأي ، من الأساليب التي تعبر عن الشورى . وعلى أية حال يجب أن تدور الشورى ـ في نظر الإسلام ـ في إطار كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام . أي في إطار ما جاء فيها من مبادىء وتوجيه . « فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

وكتاب الله ـ وهو سند الرسول ومعجزته في رسالته ـ جاء بهداية البشرية ، في غير تحيز لجنس من البشر ، أو لقبيلة ، أو لطائفة ، أو لمجموعة من الناس دون أخرى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون »(٢) .

---

(١) النساء : ٥٨ .
(٢) البقرة : ٢ ـ ٥ .

أما الآخرون الماديون والوثنيون فهم لا يستطيعون أن يروا فيه الهداية. إذ هم في ضلال يعمهون : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة، ولهم عذاب عظيم »(١) .

وصدق الله العظيم وصلوات الله وسلامه على رسوله الأمي الأمين محمد بن عبد الله ، خاتم الأنبياء والمرسلين .

* * *

• حكمة التوجيه قد تقضى بالوعد بالنصر مسبقاً:

• يقول الله سبحانه في سورة الفتح : « إنا فتحنا لك فتحاً مبينا » ويقصد فتح مكة في السنة العاشرة من الهجرة . ثم يقول فيها كذلك : « وينصرك الله نصراً عزيزاً ». ويقصد أيضاً بالنصر هنا النصر في فتح مكة . مع أن الوحي بهذا القول وبذاك كان في السنة الثامنة من الهجرة . أي بعد صلح الحديبية . والقرآن إذن أخبر بفتح مكة . . وبنصر المؤمنين فيه نصراً فاصلا قبل وقوعه بسنتين . ووعد الله لا شك نافذ وواقع . ولكن لماذا كان الوعد بالفتح ، وبالنصر فيه قبل أن يقع ؟ أكانت هناك ضرورة نفسية أو اجتماعية تدعو إلى إعلان الوعد قبل زمنه ؟ . . كان هناك سبب يقضى بأن الحكمة في توجيه المجتمع إذ ذاك هي في هذا الإعلان المبكر ؟ . سورة الفتح نفسها تجيب عن هذا السؤال في قول الله تعالى ـ بعد إعلان الفتح والنصر فيه ـ : « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم »(٢) أي أن هذا الوعد بالفتح وبالنصر فيه كان لغاية الحفاظ

(١) البقرة : ٦/٧ .
(٢) الفتح : ٤ .

على إيمان المؤمنين وقتذاك ولتأكيده فى زيادة قوته .

فمعروف أن أكثر المؤمنين لم يكن راضياً عن صلح الحديبية ، وبالأخص الشبان بينهم . معظمهم لم يكن راضياً عن بعض الشروط التى اشترطها المشركون وبالأخص عدم موافقتهم على إباحة الحج للمؤمنين فى هذا الوقت الذى تم فيه الصلح . إذ أن المؤمنين لم تكتمل لهم مثل القوة التى كانوا عليها الآن ، ولم يخلص إيمانهم بالله وبالدعوة إلى رسالته مثل ما خلص الآن فى الحديبية ، فعددهم ، ونوع إيمانهم بدعوتهم كانا كفيلين بنصرهم على الوثنيين الماديين بمكة لو وقع قتال بين الطرفين . فقبول الرسول عليه السلام — كقائد سياسى وعسكرى — لصلح الحديبية أحدث هزة نفسية بين المؤمنين ، وأحزن الكثير منهم . ويقول القرآن فى وصف المؤمنين إذ ذاك . « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً »(١) .

ولكى يعود المؤمنون إلى وضعهم النفسى الطبيعى وإلى تماسكهم فى سبيل الدعوة وإلى اطمئنانهم إلى بلوغ غايتهم وهى النصر على أعدائهم من المشركين الماديين ، اليوم أو غداً ، كان وعد الله بالنصر فى فتح مكة ودخولها ، إيذاناً بنهاية عهد المادية والطغيان وقيام المستوى الإنسانى فى المجتمع البشرى وهو ذلك المستوى الذى يحدثه ذلك التحول من الجاهلية إلى الإسلام بفضل دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام وصحابته عليهم رضوان الله .

وإذن بمقياس الإنسان : من الحكمة فى توجيه المجتمع على عهد الرسول

---

(١) الفتح : ١٨ .

عليه السلام : أن أوحى الله إليه بأن يعلن المؤمنين مبكراً ، بنصر الله لهم عند فتح مكة كما كانوا يريدون عندما أقاموا بالحديبية قبل إتمام الصلح مع المشركين . ومعنى هذا التوجيه أن الهدف الذى كان سيصل إليه المؤمنون عند بلوغهم الحديبية سيصلون إليه غداً ، وهم أكثر اطمئناناً لبلوغه ، وأكثر إيماناً بدعوتهم وبرسالتهم : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم » .

ووعد الله بنصر المؤمنين فى فتح مكة لم يصادف فراغاً فى قلوب المؤمنين ، وإنما صادف إيماناً قوياً فيها ،وصادف أعداداً كبيرة لم تتجمع من قبل ، ومن جانب آخر صادف بين أعدائهم ضعفاً مهيناً ، نتيجة خوفهم من المؤمنين على حياتهم وعلى أرزاقهم فى تجارتهم إلى الشام ومنه ، ونتيجة تفككهم فيما يجب أن يكون لهم من موقف لإبعاد هذا الخوف عنهم . فالوعد بالنصر كانت له مقدماته . وهنا كان واضحاً : أن يكون إعلانه للتطمين وإبعاد القلق النفسى على فوات فرصة كان يعتقد أنها الفرصة الأخيرة أو الوحيدة ، للقضاء على الأعداء الماديين .

ومن محاكى سياسة الرسول عليه السلام فى المجتمع عليه أن يتأكد من الجو النفسى الاجتماعى الذى يقضى بتوجيه معين يتناسب معه . إذ ليس من الحكمة فى شىء أن تكثر الوعود مقدماً من غير أن يكون هناك ما يشير إلى وقوعها ولو من بعيد .

***

• النفاق ـ والقيادة الرشيدة للمجتمع .

• فى بداية تكوين المجتمع الإسلامى بالمدينة لعب النفاق دوراً كبيراً فى هزيمة المسلمين فى غزوة « أحد » وعرف الرسول عليه السلام والمؤمنون

به صدقا بأمر المنافقين فى هذه الهزيمة ، وغضب وغضب معه المؤمنون من هؤلاء المنافقين ، وجاء الوحى بتوجيه الرسول عليه السلام : بأن يعاملهم مع آثارهم السلبية فى رفق ، وبألا يعزلهم عن الناس فى المجتمع. لأن الصلحة العليا للمجتمع تدعو الآن إلى هذا النمط من التساهل ، وعدم التشدد فى سياسته الداخلية . وهذه الصلحة هى بقاؤه غير ممزق وغير متخاصم فى مواجهة أعدائه ، ونزل قوله تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم (أى تأمى رحمة الله وكن لين الجانب معهم) ولو كنت فظا غليظا لانفضوا من حولك (إذ لو عاملتهم الآن فى شدة حسبما يستحقون لانفرط عقد المجتمع) . فاعف عنهم، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر »(١)

وتوجيه القرآن للرسول هنا بالعفو عن المنافقين ، وطلبه من الله أن يغفر لهم ، ويأخذ هو رأيهم فى أحوال المسلمين مستقبلا ، وبالأخص عند قتال الأعداء مرة أخرى ، لأن ضعف المجتمع الإسلامى إذ ذاك لا يحتمل عزل بعض أعضائه منه وفصلهم عنه . والرسول عليه السلام بالعفو عن المنافقين هذه المرة لا يريد أن يقر النفاق كطريق للسلوك فى الحياة ، ولكنه فقط يغض الطرف عنه لحين ما .

• ولذا حدث فيما بعد، عندما قوى مجتمع الرسول عليه السلام من جانب ، وظهرت سلبية النفاق على مستقبل المجتمع من جانب آخر طالب القرآن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، كقائد : ألا يطيع المنافقين فيما يريدون أو يشيرون به عليه ، وأن يلتزم الوحى وحده وما يأتى به من توجيه ، من وقت لآخر :

« يا أيها النبى اتق الله ،

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .

ولا تطع الكافرين ، والمنافقين ، إن الله كان عليما حكيما ، وانبع ما يوحى إليك من ربك ، إن الله كان بما تعملون خبيراً »(١).

فبعد أن طلب منه عليه السلام أولا : أن يشاورهم فى الأمر عندما كان المجتمع ضعيفاً عاد ووجهه الآن ـ بعد قوة المجتمع ـ إلى عدم طاعتهم فيما يقولون ،وسوى بينهم وبين المعارضين الصرحاء لهداية الله، فى عدم إخلاصهم لدين الله ، وتبييتهم السوء له ولصاحب الدعوة عليه السلام .

وعلل القرآن عدم الطاعة لرأى المنافقين بأن الإنسان يستحيل عليه أن يؤمن بالشىء وضده فى وقت واحد. فإما الإيمان بالإسلام وبالتالى الإخلاص له ، وإما عدم الإيمان به وبالتالى تبييت السوء له : « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه »(٢) والقلب مصدر الإيمان ، ومعنى ألا يكون للإنسان قلبان : ألا يكون لديه إيمانان بأمرين متناقضين فى وقت واحد . ولذلك: فادعاء المنافقين الإيمان ادعاء كاذب فهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم.

وهكذا : الحكمة فى القيادة الرشيدة للمجتمع : أن تعرف أمر النفاق والمنافقين فى المجتمع ، وتغفل أمرهم أولا أو تتجاهله إلى وقت لا يهتز فيه المجتمع بأخذ تدابير للوقاية منهم : إما بإبعادهم عن مواطن الرأى فيه ، أو بإعلان خروجهم عن مبادىء المجتمع إذا استفحل ضررهم ، على نحو ما أعلن القرآن ، ذلك فى آخر سورة نزلت ، وهى سورة التوبة فى قول الله تعالى .

« ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ، ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا وهم فاسقون »(٣) .

(١) الأحزاب : ١ ــ ٢
(٢) الأحزاب : ٤ .
(٣) التوبة : ٨٤ .

وما يعلمنه القرآن هنا من توجيه بعد توجيه بشأن معاملة النفاق والمنافقين في المجتمع إنما هو حسب مراحل المجتمع في الضعف والقوة . وليس من بين هذه التوجيهات ما يلغى بعضها الآخر .

* * *

• المنافقون يكشفون عن أنفسهم

• هذا الفريق الثالث بين المؤمنين والكافرين، وهو فريق المنافقين وهو موجود بكل مجتمع إنسانى ، ومن أخطر الجماعات في المجتمع ، على قيمه ومبادئه ، وعلى بنائه وتماسكه . ويسمى القرآن الكريم هذا الفريق « بمرضى القلوب » . لأن عيبهم وخطرهم آت من الحقد الذى تمتلىء به قلوبهم على المؤمنين في بقائهم أعزاء . وهم قد أعلنوا الإيمان ليبثوا فقط تحت ظل إعلانهم الإيمان : ما يبيتوه في نفوسهم من مكايد الفرقة والشقاق ، وعوامل التثبيط والتخاذل والاستسلام بين المؤمنين ، أو ليحصلوا لأنفسهم منافع ذاتية لا يمكن أن يحصلوا عليها إلا إذا أبرزوا عنصر الإيمان في تحركاتهم .

ويحاولون في كل لحظة إخفاء حقيقة نفوسهم ، بالأيمان الكاذبة : على أنهم أوفياء للإيمان ، وجادون في سبيله : « يحلفون بالله لكم ليرضوكم »(١) ولكن رغم حذرهم في تخفيهم فإن أسلوبهم في الحديث مع المؤمنين يتم في وضوح عن مرض النفاق في قلوبهم :

« أم حسب الذين في قلوبهم مرض : أن لن يخرج الله أضغانهم ؟ (أى هل يظن مرضى القلوب بالنفاق أن أحقادهم على الإيمان والمؤمنين ، سوف لا تظهر لحظة من اللحظات ؟ . إنهم مخطئون في هذا الظن) ،

---

(١) التوبة : ٦٢ .

«ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم (فأمارات نفاقهم قد تبدوا للعيان يعرفها من يشاهدها : يعرفها الرسول ، وكل مباشر لقيادة مجتمعة) ،

ولتعرفنهم فى لحن القول (وأخص الأمارات على نفاقهم أسلوبهم فى الحديث وميلهم به إلى نحو يشير من طرف خفي : إما إلى تدبير المكيدة ، أو إلى اقتناص مصلحة خاصة)[(١)].

وكذلك حركة نظراتهم تنبىء من يتطلع إليها عن حرجهم الشديد ، إذا ما وضعوا فعلا أمام اختبار جدى يكشف عن صدق الإيمان أو كذبه :

« فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت»[(٢)]. فقتال الأعداء عندما يطلب من المؤمنين يسعى إليه المؤمن حقا لأنه على وعد مع الله سبحانه بالجزاء الأوفى : « ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ، ورحمة خير مما يجمعون »[(٣)]. وأما غير الصادق فى إيمانه — وهو المنافق — فإنه يحرج أشد الحرج بهذا الطلب لأنه يخشى على حياته أولا ، وهو حريص على الحياة أكثر من حرصه على أى شيء آخر . ولأنه ثانيا على علاقة خفية بأعداء المؤمنين : يشاركهم كره المؤمنين ، ومحاولة الإيقاع والتربص بهم ، ثم هو على وعد معهم فى أن ينفذ لهم بعض مخططاتهم : « ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله (وهم الكافرون) سنطيعكم فى بعض الأمر (وهو ما يعود بالوبال على المؤمنين) والله يعلم إسرارهم »[(٤)].

---

(١) محمد : ٢٩/٣٠ .
(٢) محمد : ٢٠ .
(٣) آل عمران : ١٥٧ .
(٤) محمد : ٢٦ .

والقيادة الرشيدة للمجتمع هى التى لا تغمض الطرف فترة قصيرة عن متابعة كشف النفاق والمنافقين . فطبائعهم مرنة ، ومواقفهم مترددة ، وإلحاحهم فى التخفى لا يدانيه إلا محاولتهم اقتناص الفرصة لمنافعهم الشخصية : يعلنون ولاءهم للإيمان والمجتمع وهم أصحاب ولاء لإيمان آخر فى مجتمع آخر ، ويستنكرون مايقع من اعتداء أو عدوان على المجتمع الذى يعيشون فيه وهم مشاركون فى تدبيره . يستنصرون بالأجنبى فى خفاء ، ويؤكدون فى الوقت نفسه : الإنتماء إلى المجتمع.

وإذا كان القرآن قد وضع هنا أمام القيادة الرشيدة فى المجتمع بعض الأمارات الظاهرة للتعرف على النفاق والمنافقين فإن حاسة هذه القيادة يمكن أن تدرك الكثير من خصائص هذا المرض الاجتماعى،وتتخذ أسلوب العلاج أو الوقاية منه ، قبل أن يتعاظم خطره ، على نحو ما يرشد كتاب الله فى معاملة المنافقين .

* * *

الفصل الرابع

علاقة المجتمع الإسلامي بالمجتمع المادي

- سخرية الماديين من المؤمنين
- إصرار الماديين على مطاردة المؤمنين هدف من أهدافهم
- الإسلام يحرم المصاهرة بين المؤمنين والماديين
- حيطة المؤمنين في صلاتهم بالمخالفين للإيمان
- العدل لا تسقطه خصومة — أو بغضاء

• سخرية الماديين من المؤمنين :

• ظاهرتان أساسيتان يتميز بهما أصحاب الاتجاه المادى فى الحياة . وهم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله . ويسميهم القرآن مشركين ، أو جاهليين .

الظاهرة الأولى : استغراقهم فى حب الحياة الدنيا ومتعها المادية ، وانخداعهم بها ، واتخاذهم كل سبيل ولو منكرة غير إنسانية للحصول على المال أو المادة ، وردهم كل شىء فى الوجود فى نشأته أو تطوره ومراحل نموه إلى المادة وحدها. يقول تعالى فى وصف خداعهم بالدنيا : « زين للذين كفروا الحياة الدنيا »[١] ويقول فى وصف إيثارهم المتع المادية على كل قيم إنسانية : «وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة »[٢] . . ويقول فى توضيح تهافتهم على طلب هذه المتع : «والذين كفروا يتمتعون ويأكلون ، كما تأكل الأنعام »[٣] . . ويشبه إقبالهم على الدنيا فى تهافت لا يميزون فيه بعضهم عن بعض ، بصنيع الحيوانات عندما تشترك فيما يقدم لها من مؤن ، أو فيما تعثر عليه منها . فهى لا تعرف آنئذ سوى ذواتها ، وتخاصم كل ذات منها الذوات الأخرى ، ولو كانت أولادها ، أو صاحبة صلة قريبة بها .

الظاهرة الثانية : سخريتهم فى أحاديثهم ، وفى مواقفهم ، وفى حوارهم ، من المؤمنين ، ومن كتابهم ، ومن رسولهم . فلو سئلوا عن القرآن لقالوا : أساطير الأولين : «وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا : أساطير الأولين »[٤].

---

(١) البقرة : ٢١٢ .
(٢) ابراهيم : ٢/٣ .
(٣) محمد : ١٢ .
(٤) النحل : ٢٤ .

ولو سئلوا عن الوحى لقالوا : كذب أعانه عليه قوم آخرون : « وقال الذين كفروا : إن هذا إلا إفك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون »(١) . . وقالوا عنه هو عليه السلام : إنه مسحور « وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً »(٢) . ولو سئلوا عن تقييمهم للمؤمنين لأجاب القرآن عنهم يقول الله تعالى : « ويسخرون من الذين آمنوا »(٣) .

وسخريتهم من رسالة الله . ومن المؤمنين ، تعود لسبب واحد . وهو أن رسالة الله فى القرآن تقف من المادية أو الجاهلية موقف المقاومة والكشف عن آثارها الضارة والمخربة بالنسبة للإنسانية ، والعلاقات بين الناس. والوحى المكى كله فى القرآن نزل فى الدعوة إلى الوحدة فى الألوهية . ونفي الشرك والوثنية فيها . والشرك هو إشراك غير الله معه فى العبادة . والوثنية هى الاتجاه بالعبادة وبالإيمان لغير ذات المولى سبحانه : وبطبيعة الحال من يجعلون أنداداً لله ، أو من يتخذون آلهة من دون الله ، يستحيل عليهم أن يتكافأوا مع الله. ومن هنا تكون دعوة الشرك والوثنية دعوة إلى إذلال الإنسان بجعله عابداً لما لا يستحق العبادة .

أما تقييم الله للمؤمنين فهو أنهم فى الجزاء الأخروى فوق هؤلاء الماديين فى منزلة عليا قطعاً ، بالرغم من أنهم فى الدنيا قد يكونون أقل حظا منهم فى المال ومتع الحياة : « والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ، والله يرزق من يشاء بغير حساب »(٤) .. لأن الرزق المادى فى الدنيا ليس دليلا على رضاء الله عن صاحبه . بل قد تكون كثرته لمزيد من الابتلاء والاختبار .

---

(١) الفرقان : ٤ .
(٢) الفرقان : ٨
(٣) البقرة : ٢١٢ .
(٤) البقرة : ٢١٢ .

وسخرية الماديين المؤمنين : بسبب إيمانهم ، في محاولة منهم لردهم على أعقابهم ، أو لإثنائهم عن مواجهتهم بما قاله الله فيهم من أنهم مصدر الفساد في الأرض ، أو لصرفهم عما يطلبه منهم من عدم مودتهم في قول الله تعالى : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم »[1] . فلا يجتمع في قلب إنسان معا : إيمان بالله ، ومودة للجاهليين أو الماديين ولو كانوا قريب الصلة .

* * *

• إصرار الماديين علي مطاردة المؤمنين هدف من أهدافهم

• في وصف الماديين أو الجاهليين في علاقتهم بالمؤمنين ، يقول الله تعالى : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا »[2] . فيجعل القرآن أن من سمات الماديين : حرصهم على مقاتلة المؤمنين ، وعلى تتبعهم ، وعلى مطاردتهم وملاحقتهم بالأذى والتعذيب ، محاولين ردهم عن دينهم ، إن تمكنوا من ذلك . فهدفهم الأخير إذن : رد المؤمنين عن دينهم ، عن طريق وسائل القمع والإبادة .

ومن السهل إذن أن يتعرف الإنسان على اتجاه المادية في المجتمع : في قيادته .. وفي حكمه .. وفي نظامه ، بالهدف الأول الذي يسعى المجتمع إلى تحقيقه . فاتجاه ما يسمى بالثورة فيما بعد الحرب العالمية الثانية : ضد المؤمنين - وقد ينعتون بالرجعيين - والتنكيل بهم ، وتتبع تشكيلاتهم وتجمعاتهم ، والنيل من أقربائهم وأصدقائهم ، وتدبير المؤامرة تلو المؤامرة لتشتيت قوتهم :

---

(١) المجادلة : ٢٢ .
(٢) البقرة : ٢١٧ .

والحساسية من ظاهرة التدين وعدها جريمة اجتماعية : كل هذا يشير فى وضوح إلى سيطرة المادية أو الجاهلية فى المجتمع .

وعلى نحو ما يراه الإسلام فى الشرك ـ وهو ظاهرة المادية أو الجاهلية ـ من أنه جريمة لا تغتفر : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما »(١) . . ترى المادية أو الجاهلية فى دين الله أنه صورة من صور الخرافة ، وأسطورة من أساطير الأولين . فالمادية ودين الله أمران متنافران ، ولا يمكن أن يتلاءم أحدهما مع الآخر ، فأما دين الله فله الغلبة ، وأما المادية فلها الكلمة . والقرآن الكريم لهذا يفسح فى الوحى المكى المجال ليوضح الآثار الضارة على البشرية، عندما تطغى الجاهلية أو المادية ، وتسود مجتمعا من المجتمعات الإنسانية : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »(٢) . .

ويجب على المؤمنين إذن ألا يفارقهم الاعتقاد لحظة ما : بأنهم هدف الماديين أينما كانوا . ومن هنا يجب أن يكونوا محتاطين فى معاملاتهم ، وألا يسعوا إلى التقرب منهم إلا فى حدود الضرورة ، وألا يتخذوا منهم أنصارا أو أولياء وأصدقاء : « إنما وليكم الله ، ورسوله ، والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون »(٣) . . فالنصر معقود لدائرة المؤمنين إن هم اتخذوا الله ورسوله أولياء ، واتخذوا كذلك : بعضهم أولياء

(١) النساء : ٤٨ .
(٢) البقرة : ٢٥٧ .
(٣) المائدة : ٥٥/٥٦ .

بعض . وما يوجهه الله جلت قدرته من نداء المؤمنين فى أول سورة الممتحنة كفيل بأن يفتح عيونهم على الخطأ الجسيم ، إن هم قدروا عدوهم الحقيقى — وهو المادى أو الجاهلى فى كل عصر — على غير ما هو عليه واقعه الذى يكتشفه هنا قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ، تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق » . . فقد جعل هؤلاء الماديين أو الجاهليين أعداء لله ، وأعداء للمؤمنين بالتالى . لأنهم كفروا بالدين وهو رسالة الحق ، فمن الخطأ أن يمد المؤمنون إليهم يد المودة وعلاقة القربى .

« يخرجون الرسول وإياكم ، أن تؤمنوا بالله » . . ثم يوضح لماذا ينهى الله عن أن تكون للمؤمنين علاقة مودة مع هؤلاء الماديين : بأنهم اضطهدوا المؤمنين بسبب إيمانهم فتتبعوهم حتى أخرجوهم من ديارهم وحملوهم على الهجرة إلى يثرب .

« إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وأما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل

« إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ، وودوا لو تكفرون »[١] . . ويزيد القرآن هنا فى سبب النهى عن مودة الماديين فيقول : إن كفرهم بالحق ، واضطهادهم المؤمنين وهم بمكة على عهد الرسول عليه السلام بسبب إيمانهم ، لم يكن صدفة ، كما لم يكن مقصوداً به أشخاص الرسول عليه السلام ، وصحابته من المؤمنين المكيين وحدهم . وإنما عداوتهم أصيلة للإيمان . فأينما وجدوا الإيمان بالله — فى أى مكان ، وفى أى عصر ،

---

(١) الممتحنة : ١/٢ .

وأينما وجدوا المؤمنين من العرب أو غيرهم على السواء ، فهم أعداء لهم : « إن يثقفوكم (يعنون كونكم مؤمنين فى أى مكان : اليوم،أوغد) يكونوا لكم أعداء ، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون » .. فهم لا يتحرجون من إيذائكم بكل وسيلة تنال من مادياتكم ومعنوياتكم إذ هدفهم الأخير ردكم عن دين الله ، وعودتكم كفاراً تنكرون الله واليوم الآخر ، ولا تحرمون ما حرم الله ورسوله .

***

• الإسلام يحرم المصاهرة بين المؤمنين والماديين :

• إنسان يؤمن بالله واليوم الآخر .. ويحرم ما حرم الله ورسوله .

وإنسان آخر يكفر بالله واليوم الآخر .. ولا يحرم ما حرم الله ورسوله .

إنسان يؤمن بالروابط الإنسانية ، ويمارس المحبة والمودة والإخاء والتعاون مع الآخرين .

وإنسان آخر لا يؤمن إلا بالمبادلات والمنافع المادية فى العلاقات،ويمارس الأنانية ، والحقد ، والانتهازية ، والنفاق مع الآخرين .

• إنسان يعطى من نفسه،وهو من أولئكم الذين يطعمون الطعام على حبه مسكينا ، ويتيما وأسيراً ، ومع ذلك يقولون : « إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً » (١) ..

وإنسان آخر لو سئل عن معاونة الآخرين كان من أولئكم الذين يقولون تهكما : « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » .. لأنه من أولئكم الذين يأكلون التراث أكلا لما ، ويحبون المال حبا جما .

---

(١) الانسان : ٨ .

• إنسان يدعو إلى الخير ، ويمشي في النور ، ويحرص على أن تظل سبيل الله مستوية .

وإنسان آخر لا يعرف الخير إلا لذاته، ويمشي في ظلمات الضلال والحيرة، ويبغي أن تكون سبيل الله معوجة .

• إنسان يرى الحياة الدنيوية مرحلة إلى حياة أخروية أفضل منها في النوع، وهو من أجل ذلك يعمل للمرحلتين ، ومن الذين يقولون : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار » .

وإنسان آخر لا يرى إلا هذه الحياة ، وهو من أولئكم الذين يقولون : « إن هي إلا حياتنا الدنيا » . . أو على الأقل من أولئكم الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة .

• إنسان يعبد للناس طريق الهداية .

وإنسان آخر يصد عن سبيل الله .

• إنسان يفرح بفضل الله على رسوله عليه السلام، فيما أوحى إليه من قرآن وفيما كلفه من دعوة التوحيد في الألوهية .

وإنسان آخر هو من أولئكم الذين إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون[1] .

• إنسان يعتز بصلته بالله ويتوكل عليه وحده .

وإنسان آخر من أولئكم الذين إذا سئلوا عما يعتزون به في الحياة قالوا « نحن أكثر أموالا ، وأولادا ، وما نحن بمعذبين » .

* * *

هذان النوعان من الإنسان ، أحدهما يؤمن بالله والآخر يشرك به . وهما

---

(١) الزمر : ٤٥ .

لا يلتقيان أبداً . وليس بينهما جامع مشترك سوى الطبيعة البشرية التي تحددت بالفعل باتجاه كل منهما في الحياة ، وهو اتجاه يخالف الآخر تماما .

والفجوة بين النوعين كبيرة ، وليس من السهل التغاضي عنها . ولذا يحرم الإسلام : أن يتزوج مؤمن مشركة . وهي المادية التي تكفر بالله، وتنكر اليوم الآخر ، كما يحرم أن يتزوج مشرك مؤمنة . في الوقت الذي يبيح فيه للمؤمن أن يتزوج كتابية : نصرانية أو يهودية : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم » . . أي طالما بقيت المشركة على شركها فلا يجوز اقتران المؤمن بها . وفي هذه الحالة الأمة المؤمنة ـ وهي الرقيقة ـ أفضل منها . لأنها بإيمانها قريبة إلى قلب المؤمن .

« ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم »[1] . . كذلك طالما بقي المشرك على شركه فلا يجوز لمؤمنة أن تقترن به . وفي هذه الحالة العبد المؤمن — وهو الرقيق — خير منه ، للسبب ذاته ، وهو أنه بإيمانه قريب إلى قلب المؤمنة .

وتعلل الآية تحريم زواج المؤمنة من المشرك والمشركة من المؤمن بقول الله تعالى « أولئك يدعون إلى النار » . . أي أن المشركين بشركهم يوجهون غيرهم إلى الكفر برسالة الله ويسوقونهم عن طريق الخداع بالحياة المادية ، والانحراف والطغيان بها ، إلى عذاب النار في الآخرة . بينما دعوة الله في رسالته التي يحملها الرسول — أي رسول — والتي يؤمن بها أتباعه، توصل إلى المستوى الإنساني في الحياة، وبالتالي توصل في الآخرة إلى الجنة، كما توصل إلى غفران الله ـ إن شاء ـ عن الأخطاء التي تكون قد ارتكبت قبل الإيمان.

وهكذا : فرق واضح بين المصير إلى النار . . والمصير إلى الجنة، كالفرق في الدنيا بين المشرك أو المادي أو الجاهلي من جهة، والمؤمن بالله من جهة أخرى.

---

(٢) البقرة : ٢٢١ .

• حيطة المؤمنين فى صلاتهم بالمخالفين للإيمان :

• مبدأ يبقى على المجتمع تماسكه وبقاءه وهو أن يكون ولاء الأفراد فيه لبعضهم بعضا، وليس لأجنبى عنهم مخالف لهم، دونهم. ومعنى الولاء: الصداقة.. والمحبة.. والمودة.. والطاعة.. والتعاون. وهذا المبدأ يحرص القرآن الكريم كل الحرص على أن يكون سائداً فى مجتمع المؤمنين، لصالح المجتمع، ولصالح المؤمنين أنفسهم: يقول الله تعالى:

«لا يتخذ المؤمنين الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

(أى لا يرتبط أفراد المجتمع الذين تتميز علاقتهم ببعض بالمعانى الإنسانية، بصداقة مع غيرهم ممن لا يرون فى الحياة إلا المبادلة المادية، متجاوزين بها إخوانهم فى الإيمان).

ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء»

(ومن يصادق المخالفين له، دون إخوانه فى الإيمان: فليس مطيعاً ولا مؤمنا بشىء على سبيل الحقيقة مما ينصح الله المؤمنين به. وهذا الحكم ينطوى على تحذير شديد فى إيثار المخالف بالولاء والصداقة، دون المؤمنين الآخرين).

إلا أن تتقوا منهم تقاة»

(إلا فى حالة واحدة يؤذن فيها للمؤمنين بالتعبير عن الولاء للمخالف وهى تقاة صلفه وطغيانه، فى وقت لا تملك فيه الأمة المؤمنه مواجهة هذا المخالف: فى قوته، وفى إعداده للانقضاض والتشتيت).

«ويحذركم الله نفسه»

(بسبب مخالفة ما يأمركم به هنا) .

« وإلى الله المصير »[١] .

وإذ ينهى الله عن ولاء المؤمن للمخالف له ، مؤثراً له على ولائه للمؤمن معه فى مجتمعه فإنه يكشف له عن الموقف النفسى الذى لا يحيد عنه المخالف لدين الله ضد المؤمن به . وهو عداء ، وتربص ، وأمل يجب أن يحيط به كل عاقل .

أما العداء فيكمن فى مواصلة الجهد فى الوقيعة بين المؤمنين وإفساد أحوالهم .

وأما التربص فإنهم يتربصون بهم السوء والشر دائماً .

وأما الأمل ففى الرغبة الدفينة فى أن يسود العنت وتسود المشقة حياة المؤمنين . يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ،

(أى من مخالفين لكم فى الاتجاه والإيمان فى الحياة . والبطانة هى النخبة المختارة التى تؤمن على الأسرار ، ويوثق بها عند المشورة) .

لا يألونكم خبالا ،

(أى لأنهم دائبو السعى لإفساد أحوال المؤمنين) .

ودوا ما عنتم ،

(ولأنهم يرغبون ويؤملون فى إيقاعهم فى المشاكل والمشاق والعنت) ،

---

(١) ال عمران : ١٠٤ .

«قد بدت البغضاء من أفواههم ، وماتخفى صدورهم أكبر ،

(وفى المناسبة تلو المناسبة تبدر منهم البغضاء للمؤمنين عند الحديث معهم ، ولكن ما تخفيه نفوسهم ضدهم أعظم بكثير) قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون». إلى أن يقول :

« إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ،

(وأملهم فى أن تسوء أوضاع المؤمنين دائماً . لأنهم يفرحون بذلك . وهم يتمنون أن يكونوا دائماً فرحين) .

وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً .

(ولا يرهبكم أيها المؤمنون ضجيج أعدائكم المخالفين لكم فى اتجاهكم وفى دينكم فى الحياة ، ولا يخيفكم تدبيرهم للمؤامرات ضدكم فى داخل مجتمعاتكم وفى خارجها . وبالصبر وباتقاء الله وطاعته فيما أمر أو نهى عنه يمكنكم أن تتقوا ضررهم وما يبيتون لكم من سوء) إن الله بما يعملون محيط».

(فالله الذى ينصحكم باتخاذ هذا الموقف من مخالفيكم فى الإيمان يعلم تمام العلم بنفوسهم وبمدى جهدهم فى الباطل والضلال . فهو إذ ينصحكم عن علم شامل بما يدور حولكم وفى الكون كله)(١) .

***

وهكذا لا يتوزع الولاء فى المجتمع الإسلامى بين داخله وخارجه . اتجاه الولاء فيه واحد ، نحو المجتمع نفسه والمؤمنين فيه وحدهم دون غيرهم.

---

(١) آل عمران : ١١٨ ـ ١٢٠ .

ومن يفعل غير ذلك ويولى وجهه جهة أخرى أجنبية عنه ، فليس من دين الله فى شىء .

والعاقل وحده هو الذى يدرك أبعاد هذا المبدأ من مبادىء القرآن فى المجتمعات الإنسانية .

***

• العدل لا تسقطه خصومة أو بغضاء :

• حرص الإسلام على العدل وتطبيقه بين المؤمنين بعضهم مع بعض ، أو مع أعدائهم هو حرص منه على وصول الحق لأصحابه أياً كان موقنهم. فالعدل يجب أن يقر فى ذاته وأن تنحى عن طريقه العقبات النفسية ، وهى عقبات الخصومة والعداوة والبغضاء . فهو الركيزة فى علاقات الناس ، وهو الدليل العملى على أن المؤمنين بالله أصحاب إنسانية فى علاقاتهم بغيرهم .

ليس غريباً أن يباشر المؤمنون مبدأ العدل فيما بينهم ، أو أن يوصى الدين بممارسته فى تعامل بعضهم مع بعض . ولكن إنسانية الدين تبدوا فى أن يأمر المؤمنين به أن يحكموا بالعدل بين الأعداء إذا التجأوا إليهم أو بين بعض من هؤلاء ببعض آخر من المؤمنين . يقول القرآن الكريم :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ،

ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا (أى لا تحملكم عداوة مجموعة من الناس على عدم العدل معهم) ، اعدلوا هو أقرب للتقوى »[1]

---

(١) المائدة : ٨ .

وتأكيد القرآن لمباشرة العدل مع الأعداء يجعل من القيم العليا فى حياة الناس مبادىء لا تتغير إطلاقاً، كما يجعل منها مواثلا تطمئن إليه النفوس، بغض النظر عن الاختلاف بين الأفراد أو الجماعات فى النظرة إلى الحياة.

• إن فى إلزام المؤمن بأن يعدل مع خصمه أو عدوه، دعوته إلى عدم تحكيم الميول والنزعات فى قضية أساسية يتوقف عليها نظام المجتمع. وهى قضية إحقاق الحق فى ذاته.

وإذا كان يطلب من المؤمنين أن يعدلوا مع خصومهم فبالأولى يطلب من طوائف المسلمين ومجموعاتهم أن يمارسوا العدل فيما بين طوائفهم ومجموعاتهم مجموعة الرعية مع حكامهم، ومجموعة العمل مع أصحابه. أى مجموعة مع أرباب العمل.

يقول الله تعالى:

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا (أى اختلفوا وتخاصموا إلى درجة القتال بعضهم لبعض) فأصلحوا بينهما » .. فيطلب من المؤمنين جميعاً. وفى مقدمتهم الولاة والحكام — أن يتدخلوا بالصلح: فيما بين طائفة وأخرى.. وأن يكون الصلح قائماً على أساس العدل الواضح: « فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا، إن الله يحب المقسطين ». ولا يرضى بحال أن تفتات طائفة على حقوق طائفة أخرى، أو أن تمارس طائفة الاعتداء فى صوره العديدة على طائفة أخرى. وعندما يقع مثل هذا الاعتداء يجب على الأمة التصدى له: « فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله »[1].

فالإسلام لا يرضى لأرباب العمل مثلا أن يعتدوا على حقوق العمال فى

الحجرات: ٩.

الحياة الكريمة . كما لا يرضى للعمال أنفسهم فضـــلا عن أن يوصيهم بأن يسلكوا مسلك الاعتداء على أرباب العمل فى رءوس أموالهم بالتخريب ، أو بما يجر إلى خسارتهم بالتوقف عن العمل ، أو بعدم اتقانه أو بالإساءة إليه فى صورة ما .

ويعلل وجوب تدخل الأمة ، وفى المقدمة الولاة والحكام ، عند نزاع الطوائف : بأن المؤمنين جميعا إخوة من جانب ، وبأنهم جميعا أصحاب اعتبار واحد فى الإنسانية من جانب آخر ، ومن أجل ذلك يعقب القرآن على الآية السابقة بقول الله تعالى :

« إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

ثم بقوله :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن »[1] .

وقضية الأخوة ، والمساواة فى الاعتبار البشرى بين الطوائف جميعا تقضى بألا يكون ظلم أصلا ، فإن وقع ظلم أو اعتداء من طائفة على أخرى بسبب خلاف بينهما فالأمة كلها مطالبة بالتدخل لإصلاح الشأن وتحقيق العدل فى ذاته .

وهكذا من تربية المؤمن : أن يروض نفسه على العدل مع نفسه وغيره ومع عدوه الخارجى ، ومخاصمه فى الداخل ، والمؤمنون لو عرفوا دينهم ما نصحوا بعض طوائف الأمة بسفك الدماء أو بالتخريب وتبديد الأموال فى سبيل تحقيق حق مشروع أو متوهم لهذا البعض .

---

(١) الحجرات : ١١ .

فهرس الكتاب

صفحة

رقم الايداع ٧٦/٥٣٤٧
٩٧٧ ـ ٧٢٣٦ ـ ٣٦٠٠

دار غـــريب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى ـ القاهرة)
تليفون : ٢٢٠٧٩

الصفحة ص	الصفحة س	الخطأ	الصواب
٨	٥	التعبير	التبصير
٩	١٥	على	عن
١٣	١٨	وعرفها	وعرقها
١٤	٢	القبائل	والقبائل
٣٢	٦	ولولا نصر	ولوقصر
٣٧	٧	ولا قطع	ولا تطع
٤٢	٣	إلى اختيار	إلى اختبار
٤٩	١	التمكين	لتمكن
٥١	١٠	وفيرة	وفيرا
٥٢	١٧	أن يسد	أو يسد
٥٨	٣	يصلاها	يصلاها مذموما
		مدحورا	مدحورا
٦٢	٣	عن	من
٦٤	١٠	الذى يشأ	الذى لم يشأ
٧٠	٢	وتوصلها	وتؤصلها
٧٠	١٣	الآخر	با لآخر
٧١	١	مجتمعنا	مجتمعا
٨١	٥	فميزة	فميزته
٩١	٨	هو أخف	هم أخف
١٠٩	٩	من أن يدرب	أن يدرب

الصفحة ص	الصفحة س	الخطأ	الصواب
١٠٩	١٤	ويستطيع	يستطيع
١١٢	١٧	وقودون	وتودون
١١٩	٢	كما يلاحقه	كما لا يلاحقه
١١٩	٧	فى كل	فى كل وقت
١٢٤	٦	إرادة	إرادة الله
١٢٧	٨	وحكمته	وحكمة
١٢٨	١٤	إن اغتر	إن اعتز
١٢٨	١٥	كلما ذكر	كلما ذكر الله
١٣٠	٦	ألا تفلت	ألا تفلت من
١٣٢	٥	لا يضع	لا يضيع
١٣٢	١٨	بالله	بالله لكم
١٣٣	١٢	فى أن تكون	فى أن تكون
			صاحبة المنفعة
١٤٢	٥	والقسوة المادية	والقوة المادية
١٤٢	١٧	فتسخير	فتسخر
١٤٤	١١	متحكم	ليس متحكما
١٤٧	١٣	فاضلا	فاصلا
١٦١	٠	بعنون	بعنوان
١٦٥	١٤	تؤمن	تؤمن